الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الوادي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم العلوم الإنسانية

شعبة العلوم الإسلامية
تخصص علوم القرآن والتفسير

مذكرة مكملة لنيل شهادة الليسانس في العلوم الإسلامية

منهج ابن عاشور في تفسير القصة القرآنية

- قصة إبراهيم أنموذجًا-

إعداد الطالبات:
جهيـــدة ذهـــب
حسينة لجدل علي
حيـــاة بـريبـش

إشراف الدكتور:
مصباح موساوي

السنة الجامعية: 1434/ 1435- 2013/2012

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الوادي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم العلوم الإنسانية

شعبة العلـــــوم الإسلاميـــة
تخصص علوم القرآن والتفسير

مذكرة مكملة لنيل شهادة الليسانس في العلوم الإسلامية

منهج ابن عاشور في تفسير القصة القرآنية

- قصة إبراهيم أنموذجًا-

إعداد الطالبات:
جهيـــدة ذهـــب
حسينة لجدل علي
حيـاة بـــريـبـــش

إشراف الدكتور:
مصباح موساوي

السنة الجامعية: 1434/ 1435- 2013/2012

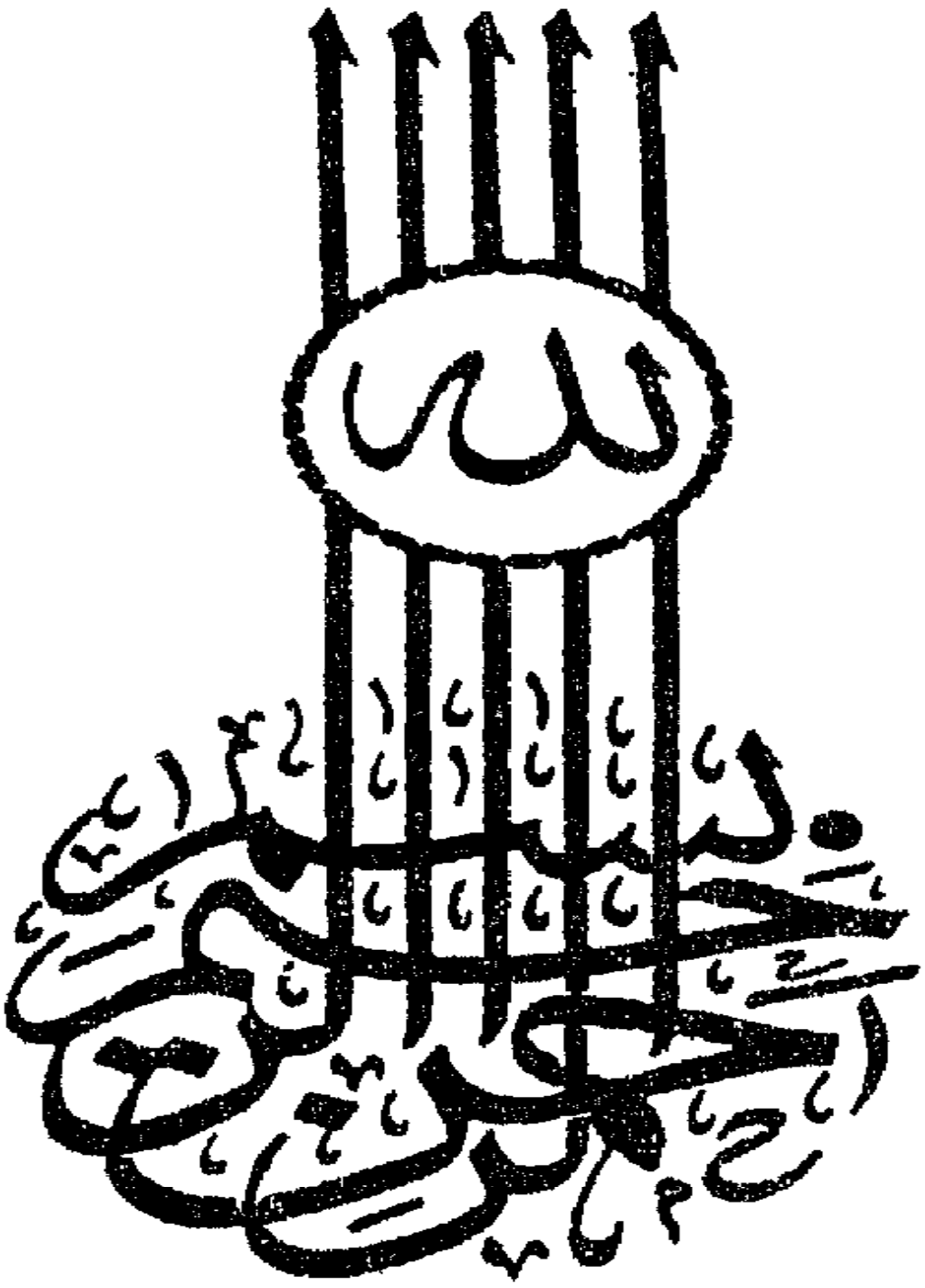

قال الله تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ سورة يوسف الآية 03.

الملخص

العنوان: منهج ابن عاشور في تفسير القصة القرآنية – قصة إبراهيم عليه السلام- أنموذجًا وهذا ملخص بحثنا يجمع شتاته ومتفرقه بأوجز عبارة وأقصر لفظ، فالبحث تناول مسيرة الشيخ الذاتية والعلمية، وشرح مبسط لكتابه.

إذ عرضنا موضوع القصة القرآنية عند العلماء بصفة عامة، وخصصنا مطلبًا عند ابن عاشور بصفة خاصة ، لما يبدو عليه من تفوق على جيله من مشايخ الزيتونة بمميزات فكرية، فكان آية من آيات الله في لقانة الذهن وأصالة العقل.

ثم طرقنا إلى سرد قصة إبراهيم عليه السلام من خلال تفسير ابن عاشور وما فيها من أخبار حسنة وصادقة، وعبرًا جمة، وفوائد للأمة، وتفنن الألفاظ وتراكيبها، بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة، ثم بعد ذلك ذكرنا منهجه من خلال تفسيره لقصة إبراهيم عليه السلام بشكل مفصل، حيث سلك منهجًا متميزًا، فجاء محتويًا على مزايا عظيمة، متضمنًا علومًا كثيرة، من بينها العناية بالبلاغة العربية، وأساليب البيان، والتعرض لبعض الكتب السماوية المحرفة كالتوراة، والعناية بالعقيدة والفقه والقراءات، كما أنه لم يغفل المسائل النحوية البلاغية.

ثمّ ختمنا هذا البحث بخاتمة؛ عرضنا فيها أهم النتائج المتوصل إليها.

وصلي الله على سيدنا محمد وسلم تسليمًا كثيرًا.

LE résumé

Le titre: la doctrine de Ibn Achour dans l'explication de l'histoir coronigue . l'histoir d'IBRAHAM comme exemple c'est le résumé de votre recherche qui aborde le parcours personnel et scientifi-que de CHAIKH; et explique son livre nous avans exposé l'objet générale , et l'histoir chez IBN ACHOUR spécialement, parce qu'il était le plus avantageux parmis ses collégues de zitouna grace à ses caractériques intllectuelles, il était un signe de dieu dans la raisan et l'intelligence.

Nous avans cité l'histoir d'IBRAHAM selon l'interprétation d'IBN ACHOUR contenant des information bonnes et vrais et morales, l'éloquence de la langue.

Luis nous cité sa doctrine à partir son interprétation de l'histoir d'IBRAHAM d'une feçon dé tailleé, où il suivait une doctrine exceptionnelle qui contient des grands avantages, et beaucoup des sciences telles ques là réthouque les figuais de style, et l'utilisation de cestains liores de ciel fasifiés, et la pris en considération de EL AKIDA et FIKH et les récitation, il n'iguoait pas la grammaire.

Nous avans concla cette recherche par des résultats atteints.

Priére et paix du Dieu sur noter seugneur Mohamed.

شكر وتقدير لأهل العرفان

الشكر لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، على نعمه التي أنعمها علينا، وعلى والدينا امتثالاً لأمر الله تعالى:﴿ أَنْ أَشْكُرْ لِي ولوَالِدَيكَ﴾.

ثم إلى الواحة الغناء -جامعة الوادي- التي استظللنا بظلالها برهة من الزمن، وقد كانت من أروع الأيام، وإلى كل أساتذتي بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، وخاصة شعبة العلوم الإسلامية، ونفرد بالشكر الخاص أستاذنا فضيلة الدكتور **موساوي مصباح** اقتداءً بقول النبي ﷺ: " من صنع إليكم معروفًا فكافئوه "[1] وقوله أيضًا: " من لا يشكر الله لا يشكر الناس "[2] إزاء ما بذله من جهد في متابعة هذا البحث دون كلل أو ملل، فلم يبخل علينا بشيء من وقته، فجزاه الله خيرًا، وأجزل له المثوبة في دار البقاء يوم يلقاه.

كما نتقدم بالشكر الوافر لكلّ من أسدى إلينا معروفًا في هذا البحث بأيّ صورة كانت وعلى رأسهم فضيلة الأستاذ: غريسي محمد الصالح، والدكتور كمال قدة، والدكتور أحمد خويلدي، والدكتور عبد الكريم بوغزالة، والدكتور محمد رشيد بوغزالة، والأستاذ خريف زتون ، والأستاذ حسن بوخزنة، والأستاذ علي خضرة... وغيرهم.

وفي الختام إن كان في هذا البحث من صواب ، فإننا نبتهل إلي الله بأسمائه الحسنى وبصفاته العلى، وندعوه باسمه الأعظم،الذي إذا سئل به أعطى،وإذا دعي به أجيب ،أن يجعل بحثنا هذا خالصًا لوجهه الكريم، وما كان فيه من زلل ،أو خطأ ، أن يغفره لنا، وأن تهيأ لنا البصيرة به ومعرفته والرجوع عنه.

كما نصلي على الحبيب المصطفى ،صاحب الحوض المورود واللواء المعقود، صاحب العزة والتحجيل، المذكور في التوراة والإنجيل ،كلما هطلت الأمطار، وتعاقب الليل والنهار، وهبت رياح الأسحار، صلاة وسلامًا ممدودين إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه، باب في الرجل يستعيذ من الرجل، 4/ 489، متفق عليه.

[2] - أخرجه أبو داود في سننه، باب في شكر المعروف، 403/4، رقم 4813.

الإهداء

إلى من قص الله عليه أحسن القصص

إلى من أمره الله بأن يقصص القصص لعلهم يتفكرون

إلى رسول الله ﷺ ،الذي هدانا الله به، إلى الحق وإلى الطريق المستقيم

إلى والدينا الأعزاء...الذين ربّونا على حبّ العلم، والأخلاق الفاضلة، وأحاطونا بدعائهم الصادق... حفظهم الله وأمتعهم بالصحة والعافية،

إلى الذي يمشي على الأرض هونًا مشرفنا الفاضل.

إلى كل من وقف معنا وساندنا طيلة هذا المشوار

إلى أبناء وطننا الحبيب

إلى كلّ من يسعى لتطوير العلم في بلدنا الغالي

إلى أعضاء لجنة المناقشة الذين تفضلوا بقبول النظر في بحثنا متحملين عناء تقويمه.

حسينة

حياة

جهيدة.

مقدمة

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ،ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ،وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته الي يوم الدين وبعد:

فيعدّ الشيخ ابن عاشور-رحمه الله- وفير الإنتاج متنوع الثقافة، ترك آثارًا علمية في الفقه والتفسير، واللغة وآدابها، وكان تفسيره المسمى (التحرير والتنوير) أشهر ما عرف به، إذْ فسر فيه الشيخ القرآن كاملاً.

كما حضيت القصة القرآنية باعتناء كبير لدى الشيخ، فقد سار في تناولها على منهج جمهور المفسرين ،وهو الاعتماد على المرويات المنقولة من أحاديث ،وآثار عن الصحابة والتابعين، وأقوال مفسرين وعلماء؛ فضلاً عن أقوال من التوراة والإنجيل (الإسرائيليات)، وكان منهجه أيضًا في سرد أحداث القصة محتويًا على أخبار وحوادث سابقة في حدود النظم القرآني، والفهم العربي لنصوص القرآن، وأحاط بجميع جوانب القصة وما تحويه من عبر وفوائد.

سبب الاختيار

ومن هنا وقع الاختيار على دراسة منهج الإمام ابن عاشور في تفسير القصة القرآنية- قصة إبراهيم عليه السلام أنموذجًا- لأنها مبثوثة في سور عدّة من كتاب الله عز وجل، تستعرض حياته، وجهاده، ومواقفه المختلفة مع أهله وقومه في أماكن عديدة، وأزمنة مختلفة ،في محاولة منا لوضع لبنة في هذا الصرح العظيم، الذي تعاقب عليه العلماء ،ووهبوا أنفسهم لإبراز هذا الجانب من جوانب التفسير، والقصص القرآني.

فقد أعجب بالقصص القرآني الكثيرمن الباحثين، و كرسوا جهدهم في الغوص على معانيه ،والوصول إلى ما حوله من حكم وعبر، حتّى زخرت المكتبات بطرائق عديدة من هذا البيان الساحر، الذي عجز عنه كلّ البشر.

إشكالية الموضوع مع جهدنا المتواصل الذي قد أعاننا الله عليه، ومحاولتنا تتبع منهج الإمام ابن عاشور في تفسيره لأحداث قصة الخليل عليه السلام وللوقوف على ما حول هذا الموضوع نطرح الأشكال الآتي:

ما مفهوم القصة القرآنية ؟، ولماذا اعتنى ابن عاشور في القصة القرآنية ببيان فوائدها، مركزًا على جانب حقيقتها التاريخية ؟

وما المنهج الذي اتبعه الإمام ابن عاشور في تفسيره للقصة القرآنية ؟

وللإجابة على هذا الإشكال وغيره ،رقنا لدراسة هذا الموضوع وفق الخطة الآتية:

مدخل تمهيدي تحدثنا فيه عن حياة ابن عاشور وكتابه، وفي المبحث الأول تطرقنا لذكر القصة القرآنية عند العلماء بصفة عامة، وابن عاشور بصفة خاصة، أمّا المبحث الثاني تكلمنا فيه عن قصة إبراهيم عليه السلام وفق تسلسلها الزمني، وختمناها بمبحث ثالث تحدثنا فيه عن منهج الشيخ في تفسيره للقصة.

أهمية وأهداف البحث

لقد وجدنا من أنفسنا الرغبة الملحة في دراسة هذا الموضوع، فتفسير ابن عاشور من التفاسير المهمة في العصر الحديث، فالقرآن الكريم فيه قصص ومواقف الأنبياء الشيء الكثير، والذي ينبغي أن يدرس بعناية لتستخلص منه العبرة والعظة.

فأحببنا أن نلم شتات هذا الجهد، ونرتب أفكاره، وندرس آثاره الملموسة في تفسيره للقصة القرآنية، وذلك لما تميز به هذا التفسير عن تفاسير العصر بشموليه النظرة، وعمقها وميلها إلى أصالة المعالجة، والأخذ بحظ وافر من طرق الأقدمين في استخلاص الفوائد وتقييد الفرائد، مع وضوح الشخصية في البحث والاستنتاج، ورصانة العبارة وجودة الإشارة وقوة السبك وروعة الأسلوب.

وحرصًا من على الاستمرار في خدمة هذه الرغبة، والتعريف بهذا الإمام العظيم، الذي تميز بصفات حميدة، وأخلاق فاضلة، جعلته في مصاف كبار العلماء، الذين كان لهم تأثير على مجتمعهم بعلمهم وأخلاقهم، حُبّب إلينا أن نتقدم بدراسة منهجه في تفسير القصة القرآنية، وأن يُدّخر لنا عملاً صالحًا يوم الدين.

الدراسات السابقة

لم يُعدمْ فكر ابن عاشور عامة وتفسيره خاصة العناية الدراسية، فقد اهتم بدارسته بعض الباحثين، وشملت هذه الدراسات جوانب متعددة من فكره، وجهده العلمي، منها ما يعلق بمنهجه العام، ومنها ما ينصب على قضايا محددة في تفسيره، حيث نقتصر على ذكر بعض الدراسات التي تشترك وبحثنا في بعض الجوانب وأهمها:

1- أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور في كتابه " التحرير والتنوير"، رسالة دكتوراه لمشرف بن جمعان الزهراني.

2- محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره "التحرير والتنوير"،رسالة ماجستير للطالب محمد بن عبد الله القرني.

3- سورة إبراهيم في القرآن الكريم – دراسة لغوية- المدرس المساعد رفاه عبد الحسين مهدي الفتلاوي والمدرس المساعد عبوسي محسن العامري.

4- القرآن الكريم وروايات المدرستين، تأليف: السيد مرتضى العسكري (دراسة روايات سورة إبراهيم).

5- مباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير، دراسة دكتوراه مقدمة لكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى من الباحث شعيب بن أحمد الغزالي.

6- خصائص بناء الجملة القرآنية ودلالتها البلاغية في تفسير التحرير والتنوير دراسة مقدمة لكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى من الباحث: إبراهيم الجعيد.

7- الاستعارة التمثيلية في تفسير "التحرير والتنوير"، رسالة علمية مقدمة إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر لنيل درجة دكتوراه من الباحث: علي محمد العطار.

8- مقدمات التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر بن عاشور، رسالة ماجستير، من إعداد الأستاذ: محمد الصالح غريسي.

المنهج المتبع في الدراسة

بعد دراستنا لمنهج ابن عاشور في تفسير القصة القرآنية تبين لنا أنّه منهج استنباطي استقرائي.

ومن أهم الصعوبات التي واجهتنا في هذا البحث كغيرنا من الباحثين: صعوبة الإلمام بجوانب هذا الموضوع نظرًا لتوسعه في الجانب اللغوي.

وقد اعتمدنا على عدّة مصادر أهمها تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور.

وفي الأخير نرجو أننا قد وفقنا في إنجاز هذا البحث وأن ينال إعجاب الجميع والحمد لله ربّ العالمين.

خطة البحث

مقدمة.

مدخل تمهيدي:التعريف بابن عاشور وكتابه.

المطلب الأول: التعريف بابن عاشور.

الفرع الأول: اسمه ونسبه ومولده.

الفرع الثاني: حياته العلمية.

الفرع الثالث: آثاره.

الفرع الرابع: أقوال العلماء فيه.

الفرع الخامس: وفاته.

المطلب الثاني: التعريف بكتابه.

الفرع الأول: اسم الكتاب.

الفرع الثاني: مناسبة التأليف.

الفرع الثالث: مدّة التأليف.

الفرع الرابع: القيمة العلمية لكتابه.

المبحث الأول: ماهية القصة القرآنية.

المطلب الأول: القصص القرآني.

الفرع الأول: مفهوم القصص القرآني.

الفرع الثاني: أهدافها وأنواعها.

الفرع الثالث: خصائصها.

المطلب الثاني: القصة القرآنية عند ابن عاشور.

الفرع الأول: مفهوم القصة عند ابن عاشور.

الفرع الثاني: فوائدها.

الفرع الثالث: أغراضها.

المبحث الثاني: قصة إبراهيم عليه السلام من خلال تفسير ابن عاشور.

المطلب الأول: توحيد إبراهيم عليه السلام وتصديقه.

المطلب الثاني: استغفاره لأبيه وتبرؤه منه.

المطلب الثالث: محاجته لعبدة الكواكب.

المطلب الرابع: إبراهيم عليه السلام يكسر الأصنام ليلفت إلى دعوته الأنظار.

المطلب الخامس: حادثة الإحراق ونجاة إبراهيم عليه السلام من النار.

المطلب السادس: المناظرة والمحاجة.

المطلب السابع: ذكر هجرة الخليل عليه السلام.

المطلب الثامن: تركه زوجه وابنه في مكة.

المطلب التاسع: قصة الذبيح عليه السلام.

المطلب العاشر: ذكر مولد إسحاق عليه السلام.

المطلب الحادي عشر: موقفه مع ربه.

المطلب الثاني عشر : بناؤه بيت الله الحرام.

المبحث الثالث: منهج ابن عاشور من خلال تفسير قصة إبراهيم عليه السلام.

المطلب الأول: نماذج التفسير بالمأثور عند ابن عاشور.

الفرع الأول: استشهاده بالقرآن.

الفرع الثاني: استشهاده بالحديث.

الفرع الثالث: استشهاده بأقوال الصحابة والتابعين.

المطلب الثاني: نماذج التفسير بالرأي عند ابن عاشور.

الفرع الأول: اهتمامه باللغة.

الفرع الثاني: التفسير العقدي.

الفرع الثالث: استشهاده بالفقه.

خاتمة.

مدخل تمهيدي:التعريف بابن عاشور وكتابه

المطلب الأول: التعريف بابن عاشور

الفرع الأول: اسمه ونسبه ومولده

1- اسمه: هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور[1].

2- نسبه: فأسرة ابن عاشور فيما تذكره المصادر أسرة شريفة تنتمي إلى آل بيت النبي ﷺ وقد هاجرت من الأندلس بعد احتلال الأسبان لها، وتنكيلهم بالمسلمين، ومحاولة تنصيرهم، فرارًا بدينهم من تلك الفتن، فاستقرت بمدينة (سلا) بالمغرب الأقصى؛ حيث أقامت فترة، ثمّ انتقلت إلى تونس، ولابدّ أن يكون ذلك على يد ابن عاشور الجدّ الأعلى، إذْ يذكر حسين خوجة في ترجمته أنّه: " رحل إلى مدينة تونس بعد حجه، وأقام بها مدّة تقرب من خمسين سنة، إلى انتقاله من دار الفناء إلى دار البقاء سنة 1110هـ.

3- مولده: ولد العلامة الطاهر ابن عاشور بالمرسى، وهي ضاحية جميلة[2]،من الضواحي الشمالية للعاصمة التونسية، تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وتبعد عشرين كيلومترًا عن مدينة تونس، وكانت ولادته سنة(1296هـ- 1879م) بقصر جدّه لأمّه الشيخ محمد العزيز بوعتور[3]، وكان له من العمر 79 سنة "[4].

الفرع الثاني: حياته العلمية

1- شيوخه:

1-1- جدّه لأمّه الشيخ محمد العزيز بن محمد الحبيب، بن محمد الطيب، ابن الوزير محمد بن محمد بوعتور، ولد سنة 1240هـ.

1-2- عمر ابن الشيخ (1239هـ- 1329م) هو عمر بن أحمد بن على بن حسن بن علي بن القاسم المعروف بابن الشيخ أو" سيدي عمر".

---

1. من أعلام الزيتونة، شيخ الجامع الأعظم، محمد الطاهر بن عاشور، بلقاسم الغالي، ص35، دار ابن حزم بيروت لبنان، الطبعة 1، 1417هـ، 1996م،

2- أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر بن عاشور في كتابه (التحرير والتنوير)- أطروحة علمية مقدمة لنيل درجة الدكتوراه - للطالب مشرف بن أحمد جمعان الزهراني، جامعة أم القرى مكة المكرمة،كلية الدعوة وأصول الدين شعبة التفسير وعلوم القرآن، قسم الكتاب والسنة، ص 16.

3- مقدمات التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر ابن عاشور- رسالة لنيل شهادة الماجستير- للأستاذ غريسي محمد الصالح، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، تخصص التفسير وعلوم القرآن، 2008م، ص 6.

4-.المرجع السابق ،ص 16

1-3- الشيخ سالم بوحاجب (1243هـ- 1343م)

1-4- محمد النّخلي أصيل القيروان متوفى سنة (1925م)[1].

2- رحلاته:

وقام إلى جانب هذا النشاط الوافر برحلات إلى المشرق وأوربا واسطنبول، وشارك في بعض المؤتمرات العلمية، يقول الفاضل بن عاشور:" رحلت للاشتراك في مؤتمر المستشرقين عدّة مرات، لكن المرة التي كنت فيها بصحبة والدي هي التي انعقد فيها المؤتمر باسطنبول في سبتمبر 1951م، وكانت رحلة أُعدّها من غُرر الحياة، فلم نكن نمثل دولة، ولا منظمة، وكانت لنا فرصة لزيارة تلك المدينة، التي هي أمّ التاريخ الحديث، ومجلى الجمال الساحر، ومجمع الكنوز النفيسة من المعالم والآثار والكتب"[2].

الفرع الثالث: آثاره

1- تلاميذه: ولى العلامة محمد الطاهر بن عاشور التدريس في جامع الزيتونة مدّة طويلة من الزمن، وكذا في المدرسة الصادقية، ومن هنا فقد تتلمذ على يد الشيخ ابن عاشور عدد كبير وجمّ غفيرمن الطلاب وصار هؤلاء- فيما بعد- أبرز أعلام النهضة العلمية والدينية في تونس ومنهم:

1-1- أبناء الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: كان من أبرز المتخرجين على يديه ابنه الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، كما تخرج على يديه ابنه الثاني الأستاذ عبد الملك ابن عاشور.

1-2- عبد الحميد بن باديس (1307هـ- 1889م)

1-3- محمد الصادق الشطي (1312هـ- 1364هـ)

1-4- أبو الحسن بن شعبان (1315هـ- 1383هـ)[3].

2- مؤلفاته: ومن أبرز المؤلفات التي أتحف بها المكتبة الإسلامية: التحرير والتنوير في تفسير القرآن، مقاصد الشريعة الإسلامية، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الوقف وآثاره في الإسلام، أصول الإنشاء والخطابة، موجز البلاغة...[4]

1- من أعلام الزيتونة، شيخ الجامع الأعظم، محمد الطاهر بن عاشور، بلقاسم الغالي، ص 40- 46.

2- المرجع نفسه، ص 65، 66.

3- الإمام محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير والتنوير – رسالة لنيل درجة الماجستير- للطالب محمد بن سعد بن عبد الله القرني، جامعة أم القرى مكة المكرمة،كلية الدعوة وأصول الدين شعبة التفسير وعلوم القرآن، قسم الكتاب والسنة 1427هـ، ص 14-16.

4- التميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر بن عاشور في تفسيره – رسالة لنيل درجة الماجستير – للطالب نشوان عبد خالد قائد، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، 2010م، ص 7.

ومنها أيضًا: أليس الصبح بقريب، أصول التقدم في الإسلام، أمالي على دلائل الإعجاز قصة المولد[1].

الفرع الرابع: أقوال العلماء فيه

لقد كان العلامة محمد الطاهر بن عاشور – رحمه الله – علمًا بارزًا من أعلام الفكر العربي الإسلامي، وممن تبوء مكانة عالية مرموقة، وقدّم إصلاحات عظيمة وأثرى المكتبة الإسلامية، والساحة الفكرية بمؤلفاته القيمة العظيمة، ومن هنا توالت الإشادة والتنويه بأعماله العظيمة، وجهوده القيمة في حياته وبعد وفاته، وإليك بعض أقوال علماء عصره في الثناء عليه من أقرانه وتلاميذه:

- ومما قال عليه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: " الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور؛ علمًا من الأعلام الذين يعدّهم التاريخ الحاضر من ذخائره.... فهو إمام متبحر في العلوم الإسلامية، تخرجت على يده طبقات ممتازة في التحقيق العلمي"[2]

- وقال الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي: " وبحق كان الإمام ابن عاشور من أئمة رجال الدين، وشيوخ الإسلام، متمكنًا في علوم الشريعة، والأدب، وفي الأصول والفروع، حتّى عُدّ إمام عصره، وشيخ دهره، وتصدر جيله وصار مقصد الناس وطالبي الفتيا في حياته"[3]

الفرع الخامس: وفاته

توفى ابن عاشور يوم الأحد 13 رجب 1393هـ الموافق لـ: 12 أوت 1973م بعد حياة حافلة بالجدّ والنشاط وا،لإفادة والمؤلفات القيمة، وموت أعلام الفكر موت لأجسادهم، ومنهم من يدخل بوفاته حياة الذّكر والفكر، فيقبل الناس على آثاره يتدارسونها، وذلك ما كان لابن عاشور[4].

المطلب الثاني: التعريف بكتابه

الفرع الأول: اسم الكتاب

1- العلامة المجدد والداعية المصلح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وأثره في الحفاظ على التراث العربي والإسلامي مجلة أفاق للثقافة والتراث، أحمد عيساوي، ص 106.

2- الإمام محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير والتنوير، للطالب محمد بن سعد بن عبد الله القرني، ص 19.

3- المرجع نفسه، ص 20.

4- من أعلام الزيتونة، شيخ الجامع الأعظم، محمد الطاهر بن عاشور، بلقاسم الغالي، ص 68.

يعرف تفسير ابن عاشور للقرآن الكريم بـ: " التحرير والتنوير" أو بلفظ " تفسير التحرير والتنوير"، كما هو مصدر به وهو موافق للاسم المختصر، الذي ارتضاه مؤلفه بعد الاختصار وهو لفظ " التحرير والتنوير من التفسير"؛ وعنوانه قبل الاختصار: " تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، وهو عنوان ينبئ على التعريف بالكتاب كما يريده صاحبه.

الفرع الثاني: مناسبة التأليف

لم يأت في كلام المؤلف – رحمه الله – ولا في تراجم حياته ما يشير إلى وجود أحداث معينة، أو سبب مباشر كان وراء تأليف ابن عاشور لكتابه الضخم في التفسير، والأمر كما يبدو جليًا في كلامه أمنية كانت تراود الشيخ، وتتوق نفسه إليها حينًا بعد حين، ولمّا تولى القضاء ثمّ الإفتاء تباعدت هذه الأمنية، ثمّ ألقى الله في قلبه العزم على المضي فيما أراد.

يقول – رحمه الله – واصفًا هذا الحال: " وفيما أنا بين إقدام وإحجام، إذا بأملي قد خيّل إليّ أنّه تباعد أو انقضى، إذْ قُدّر أن تسند إليّ خطة القضاء، فبقيت متلهفًا ولات حين مناص، وأضمرت تحقيق هاته الأمنية، متى أجمل الله الخلاص، وكنت أحادث بذلك الأصحاب والإخوان، ولم أزل كلما مضت مدّة يزداد التمني، وأرجو انجازه، إلى أن أوشك أن تمضي عليه مدّة الحيازة، فإذا الله قد منّ بالنقلة إلى خطة الفتيا، وأصبحت الهمة مصروفة إلى ما تنصرف إليه الهمم العليا، فتحول إلى رجاء ذلك اليأس، واستعنت بالله تعالى واستخرته وتوخيت طرق الصواب والسداد".

الفرع الثالث: مدّة التأليف

يصف المؤلف في آخر كتابه المبارك "التحرير والتنوير" مدّة تأليفه بالتحديد ويشير إلى ما في هذه المدّة الطويلة من أحوال يتناوب فيها عليه البسط والانقباض، والسعة والضيق، وكأنه يعتذر عمّا قد يصيب كتابه من نقص أو قصور.

وقد قال – رحمه الله -: " وكان تمام هذا التفسير عصر يوم الجمعة، الثاني عشر من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمائة وألف، فكانت مدّة تأليفه تسعًا وثلاثين سنة وستة أشهر،

وهي حقبة لم تخلُ من أشغال صارفة، ومؤلفات أخرى وارفة، ومنازع بقريحة شاربة طورًا وطورًا غارفة"[1].

الفرع الرابع: القيمة العلمية لكتابه

يعدّ تفسير التحرير والتنوير أحد التفاسير الحديثة المعروفة بين الدارسين والباحثين بالأصالة والإتقان، والإحاطة والشمول، والجودة والإحكام، ومع أنّ الدراسات التي كتبت بشأنه قليلة في حدود ما نعلم، إلاّ أنّها جميعًا أشادت به، وبمنهج مؤلفه في تأليفه، وبراعته في استنباط قضايا الأصول والحكام، ومقاصد الشريعة الإسلامية.

1- مقدمات التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر ابن عاشور- رسالة لنيل شهادة الماجستير- للأستاذ غريسي محمد الصالح، ص 3-4.

المبحث الأول: ماهية القصة القرآنية

المطلب الأول: القصص القرآني

الفرع الأول: مفهوم القصص القرآني

لغة: يقول الراغب الأصفهاني[1](ت 502هـ): القص: تتبع الأثر، يقال قصصت أثره والقصص: الأثر[2]، قال تعالى:﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾[3].

اصطلاحًا: يقول عبد الكريم الخطيب: " والقصة في القرآن إنّما تتبع أحداثًا واقعة وتعرض منها ما ترى عرضه، ومن هنا كانت تسمية الأخبار التي جاء بها القرآن قصصًا مما يدخل في المعنى العام لكلمة خبر أو نبأ"[4].

●الفرق بين (القصص) بالفتح والكسر:

القِصص بكسر القاف: جمع القصة التي تكتب- فإذا كان القِصص- بكسر القاف جمع قصة، فالإشارة بذلك تكون للأحداث والأخبار والأمور التي جمعتها القصة.

أمّا القَصص بالفتح فهو الخبر المقصوص فالإشارة هنا تكون إلى طريقة قص الأخبار وعرض الأحداث[5].

الفرع الثاني: أهدافها وأنواعها

1- أهدافها:

لم يغفل القرآن الكريم أيًّا من أشكال التعبير النثري، التي تحقق أهدافه، فغاياته السامية؛ كالقصة والخطاب والحوار، كما لم يغفل أيضًا من أنماط الكلام خبرًا وإنشاءً، وأيًّا من أساليب المخاطبة، سواءً بالأمر والنهي والزجر والوعظ والترغيب أوالترهيب، والترهيب المباشر[6].

ومن بين أهدافها: تثبيت فؤاد النبي – عليه الصلاة والسلام- وتخفيف ما أصابه من أذى من قومه، وحثّه على الإقتداء بالأنبياء السابقين، وتبشيره بأنّ العاقبة الحسنة ستكون له.

1- هو الحسين بن محمد ابن المفضل أبو القاسم الأصفهاني أحد أعلام العلم ومشاهير الفضل متحقق بغير فن من العلم وله تصانيف تدلّ على تحقيقه وسعة دائرته في العلوم وتمكنه منها انظر: الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد أرناؤوط، تركي مصطفى ، 13/ 29، دار إحياء التراث العربي، لبنان، الطبعة1، 2000.

2- مفردات في ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ص 671، دار القلم، دمشق الطبعة 5، 2001م.

3- سورة الكهف (مكية)، الآية 64.

4- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، ص 45، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

5- اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، سليمان لدقور، ص 5.

6- المرجع نفسه، ص 36.

- بيان أنّ الرسل جميعًا أرسلوا برسالة واحدة، وهي الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة لله الواحد.

- التذكير بأحداث الأمم الغابرة، والأمم البائدة، الذين تنكبوا عن صراط الهداية، وهدي الأنبياء والمصلحين.

- تصحيح العقيدة وغرس بذور الإيمان بالله ربًّا واحدًا[1].

2- أنواعها:

والقصص في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء، وقد ضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة، وتطورها، وعاقبة المؤمنين والمكذبين كقصص نوح،وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى ومحمدﷺ ، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة والسلام.

النوع الثاني: قصص قراني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت وجالوت، وابني آدم وأهل الكهف، وذي القرنين وقارون، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحوهم.

النوع الثالث: قصص تتعلق بالحوادث التي وقعت في عهد الرسولﷺ ؛ كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة والإسراء ونحو ذلك[2].

الفرع الثالث: خصائصها

القصة القرآنية إحدى وسائل القرآن الكريم لإبراز أغراضه الدينية، وذلك أن القرآن كتاب دعوة دينية في المقام الأول، تتجلى فيه وحدة العقيدة ووحدة الأديان...وتماثل وسائل الدعوة منذ البدء حتّى الإسلام خاتم الأديان.

والقرآن- وهو يتخذ من القصة وسيلة لإبلاغ الدعوة وترسيخها ونشرها- يؤلف بين الغرض الديني والفني؛ بحيث يتخذ من الجمال الفني التصوير التعبيري طرائق للتأثير النفسي والوجدان، ويخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفتية، فالفن والدين كلاهما

1- قصص القرآن، صلاح الدين محمود، ص5، دار الغد الجديد، المنصورة، الطبعة1، 2009م.
2- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص 280، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة1، 2011م.

عميق الغور في النفس والحسّ، ولا شكّ أن صفاء النفس مدعاة طبيعية لحسن التلقي لمجال الذين والفن وخضوع القصة القرآنية لهذا الغرض الديني لم يمنع أن يكون لها شخصيتها الخاصة بها من خلال أسلوبها وطريقة عرضها والمقدار الذي يُعرض منها.

إنّ القصة في القرآن ليست عملاً فنيًا مستقلاً في موضوعه، وطريقة عرضه وسير حوادثه، كما هو الحال في القصص الفني إنّما القصة فيه وسيلة من الوسائل الكثيرة التي استخدمه لغرضه الأصيل، وهو التشريع وبناء الفرد والمجتمع وإنّ القصة التي ترد فيه لا تختلف في غايتها عن المثل الذي يضرب للناس[1].

المطلب الثاني: القصة القرآنية عند ابن عاشور

الفرع الأول: مفهوم القصة عند ابن عاشور

والقصة: الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قَصَصًا مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم، وجمع قِصص بكسر القاف، أمّا القَصص بفتح القاف فاسم للخبر المقصوص، وهو مصدر سُمّي به المفعول، يقال قص على فلان إذا أخبره بخبر.

الفرع الثاني: فوائدها

بثت القصص بأسلوب بديع، إذا ساقها في مظان الاتعاظ بها مع المحافظة على الغرض الأصلي، الذي جاء به القرآن، من تشريع وتفريع، فتوفرت من ذلك عشر فوائد:

1- أن قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء وأيامهم، وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلاّ الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحدّيًا عظيمًا لأهل الكتاب.

2- أن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الأنبياء وشرائعهم، فكان اشتمال القرآن على قصص الأنبياء وأقوالهم، تكليلاً لهامة التشريع الإسلامي، بذكر تاريخ المشرعين، قال تعالى:﴿ وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾[2].

3- لما في القصة من فوائد تاريخية، من معرفة ترتيب المسببات على أسبابها في الخير والشرّ، والتعمير لتقتدي الأمة وتحذر.

1- اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، سليمان لدقور، ص 61- 62.
2- سورة آل عمران (مدنية)، الآية 146.

4- لما في القصة من موعظة للمشركين، بما لحق الأمم التي عاندت رسلها، وعصت أوامر ربّها، حتّى يرعوا عن غلوائهم، ويتفطنوا بمصارع نظرائهم وآبائهم.

5- أن في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة وذلك أسلوب لم يكن معهودًا للعرب، فكان مجيئه في القرآن ابتكارا جديدا في البلاغة العربية.

6- أن العرب بتوغل الأمية والجهل فيهم، أصبحوا لا تهدي عقولهم إلاّ بما يقع تحت الحس، أو ما ينزع منه ففقدوا فائدة الاتعاظ بأحوال الأمم الماضية .

7- تعويد المسلمين على معرفة سعة العالم ،وعظمة الأمم، والاعتراف لها بمزاياها، حتى تدفع عنهم وصمة الغرور.

8- أن ينشئ في المسلمين همة السعي إلى سيادة العالم، كما سادت الأمم من قبلهم، ليخرجوا من الخمول الذي كان عليه العرب.

9- معرفة أن قوة الله تعالى فوق كلّ قوة، ولأنّ الله ينصر من ينصره.

10- أنّه يحصل منها بالتبع فوائد في تاريخ التشريع والحضارة[1].

الفرع الثالث: أغراضها

أحدها: رسوخها في الأذهان بتكريرها.

ثانيها: ظهور البلاغة؛ فإنّ تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ، إذا جاء الأحق منه إثر السابق، مع تفنن في المعاني، باختلاف طرق أدائها من مجاز أو استعارات.

أمّا ثالثها: أن يسمع السابقون من المؤمنين في وقت نزول القرآن، ذكر القصة التي كانت فاتتهم، مماثلتها قبل إسلامهم أو في مدّة مغيبهم.

الرابع: أن جمع المؤمنين جميع القرآن حفظًا كان نادرًا، بل البعض يحفظ بعض السور، فيكون الذي حفظ إحدى السور التي ذكرت فيها قصة معينة عالمًا بتلك القصة[2].

1- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 1/ 64- 66، التونسية، تونس، د ط، 1984م.
2- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 67- 69.

المبحث الثاني: قصة إبراهيم عليه السلام من خلال تفسير[1] ابن عاشور

المطلب الأول: توحيد إبراهيم وتصديقه[2]

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾[3]، اشتملت هذه الآية بالتنويه على نبي الله إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء، وأول من أعلن التوحيد إعلانا باقيًا ببنائه الكعبة، وقد جرى سرد خبر إبراهيم على أسلوب سرد قصة مريم، لمّا في كلٍّ من الأهمية، و«الصديق» صيغة مبالغة في الاتصاف، ووصف إبراهيم بالصديق لفرط صدقه في امتثال ما يكلفه الله تعالى، لا يصده عن ذلك ما قد يكون عذرًا للمكلف، مثل مبادرته إلى محاولته ذبح ولده، حين أمره الله بذلك في وحي الرؤيا، فالصدق هنا معنى بلوغ نهاية الصفة في الموصوف بها، كما في قول تأبط شرًّ:

إنّي لَمَهْدٌ مِن ثَنَائِي فَقَاصِدٌ بِه لابْنِ عَمِّ الصِدقِ شَمَسٌ بن مَالِك

وجملة « إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا» واقعة موقع التعليل للاهتمام بذكره في التلاوة، وهذه الجملة معترضة بين المبدل منه والبدل فإنّ (إذْ) :اسم زمان، وقع بدلاً من إبراهيم، أيّ اذكر ذلك خصوصًا من أحوال إبراهيم فغنّه أهم ما يذكر فيه لأنّه مظهر صديقيته، إذْ خاطب أباه بذلك الإنكار.

و«النَّبِيءُ» فعيل بمعنى مفعول، من أنبأه بالخبر، والمراد هنا أنّه منبأ من جانب الله تعالى بالوحي[4].

إنّ إبراهيم عليه السلام بليغ التصديق، بما يجب لله من الوحدانية والتنزيه، ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج، وأقوم سبيل في تبليغ دعوة الحق إلى قومه.

المطلب الثاني:استغفاره لأبيه وتبرؤه منه[5]

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيه إِلاَّ عَنْ مَوعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَنَ لَهُ أَنَّهُ عَدوٌّ لله تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَاهٌ حَليمٌ﴾[1].

1- **تفسير:** الفَسْرُ: إظهار المعنى المعقول، والتفسير في المبالغة كالفسر، والتفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها وفيما يختص بالتأويل لهذا يقال: تفسير الرؤيا وتأويلها، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ص 632، الطبعة5، دار القلم، دمشق، 2011م.

2- محاضرات في التفسير الموضوعي، عباس عوض الله عباس، ص 100، الطبعة 1، دار الفكر، دمشق 1428هـ، 2007م.

3- سورة مريم (مكية)، الآية 41.

4- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 112.

5- محاضرات في التفسير الموضوعي، عباس عوض الله عباس، ص 99.

يقول ابن عاشور- رحمه الله- فيما ورد من استغفار إبراهيم لأبيه: أنّه قد يثير تعرض بين الآيتين «مَا كَانَ النَّبِيءُ» وقوله: «وَلَو كَانَ أُولِي قُرْبَى»، فلذلك تصدى القرآن للجواب عنه والوعد، صار من أبي إبراهيم لا محالة، كما يدلّ عليه الاعتذار لإبراهيم ،لأنّه لو كان إبراهيم هو الذي وعد أباه بالاستغفار، وكان استغفاره له للوفاء بوعده لكان يتجه من السؤال على الوعد بذلك، وعلى الوفاء به ما اتجه على وقوع الاستغفار له، فالتفسير الصحيح :أنّ أبا إبراهيم وعده بالإيمان فكان بمنزلة المؤلفة قلوبهم بالاستغفار له، لأنّه ظنّه متردّدًا في عبادة الأصنام لمّا قال له: «اهْجُرِنِي مليًّا»، فسأل الله له المغفرة لعلّه يرفض عبادة الأصنام، كما يدلّ عليه قوله: «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْه»، وطريق تبين أنّه: عدوٌّ لله، إمّا بالوحي، بأن نهاه الله عن الاستغفار له، وإمّا بعد أن مات على الشرك.

وجملة: «إنَّ إبْرَاهِيمَ لأَوَاهٌ حَليمٌ»، استئناف الثناء على إبراهيم،«أَوَاهٌ» فسر بمعان ترجع إلى الشفقة، إمّا على النفس فتفيد الضراعة إلى الله والاستغفار، وإمّا على الناس فتفيد الرحمة بهم والدعاء لهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيكَ سَأَسْتَغفِرُ لَكَ رَبِّي إنَّه كَانَ بِي حَفيًّا﴾[2]؛ أيّ: سلام عليك، سلام توديع ومتاركة ،وبادره به قبل الكلام الذي أعقبه به، إشارة إلى أنّه لا يسوؤه ذلك الهجر في ذات الله تعالى ومرضاته، ومن حلم إبراهيم أن كانت متاركتة أباه مثوبة بالإحسان في معاملته في آخر لحظة، وأظهر حرصه على هداه فقال:«سَأَسْتَغفِرُ لَكَ رَبِّي» أيّ أطلب منه لك المغفرة من هذا الكفر، بأن يهديه الله للتوحيد، فيغفر له الشرك الماضي، إذْ لم يكن إبراهيم تلقى نهي من الله عن الاستغفار للمشرك.

وهذا ظاهر في قوله تعالى: «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبْرَاهِيمَ لأَبِيه إلاَّ عَنْ مَوعِدَةٍ وَعَدَهَا إيَّاهُ» واستغفاره له هو المحكي في قوله تعالى: «وَاغْفِر لأَبِي إنَّهُ كَانَ مِن الضَّالين» وجملة: «سَأَسْتَغفِرُ لَكَ رَبِّي» مستأنفة وعلامة الاستقبال، والفعل المضارع مؤذنان بأنّه يكرر الاستغفار في المستقبل وجملة: «إنَّه كَانَ بِي حَفيًّا» تعليل لما يتضمنه الوعد بالاستغفار من رجاء المغفرة استجابة لدعوة إبراهيم، بأن يوفق الله أبا إبراهيم للتوحيد ونبذ الإشراك.

1- سورة التوبة(مدنية)، الآية 114.
2- سورة مريم(مكية)، الآية 47.

ومن هنا يتبين لنا جليًّا أن إبراهيم عليه السلام قد استغفر لأبيه كما وعده في أدعيته، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

المطلب الثالث: محاجته لعبدة الكواكب[1]

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَليه اَلَيلُ رَءَا كَوكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِين(76) فَلَمَّا رَءَا القَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لمْ يَهدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَومِ الضَّالين(77) فَلَمَّا رَءَا الشَّمسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَر فَلَمَّا أَفَلَت قَالَ يَا قَومِ إنِّي بريءٌ ممَّا تُشرِكُون(76)﴾[2].

- «فَلَمَّا جَنَّ» الفاء من التفريغ والتسبب وقوله: «فَلَمَّا جَنَّ عَليه اَلَيلُ»؛ أيّ: أظلم الليل إظلامًا على إبراهيم، حيث كان إبراهيم محوطًا بظلمة الليل، وظاهر قوله: «رَءَا كَوكَبًا» أنّه حصلت له رؤية الكواكب عرضًا، من غير قصد للتأمل، وإلاّ فإنّ الأفق في الليل مملوء كواكبًا، وأنّ الكوكب كان حين رآه واضحًا في السماء مشرقا بنوره، وجملة «قَالَ هَذَا رَبِّي»؛ أيّ خالقي ومدبري فهو مستحق عبادتي، قاله على سبيل الغرض جريًّا على معتقد قومه ليصل بهم على نقض اعتقادهم، فأظهر أنّه موافق لهم، ليهشوا إلى ذلك ثمّ يكر عليهم بالإبطال، إظهارا للإنصاف وطلب الحق، وعلى هذا فالآية تقتضي أنّ قومه يعبدون الكواكب، وأنّهم على دين الصابئة، وقد كان ذلك الدين شائعا في البلدان التي نشأ فيها إبراهيم عليه السلام ،وأنّ الأصنام التي كانوا يعبدونها أرادوا بها أنّها صور للكوكب وتماثيل لها، على حسب تخيلاتهم وأساطيرهم، مثلما كان عليه اليونان القدامى، ويحتمل أنّهم عبدوا الكواكب، وعبدوا صورًا أخرى على أنّها دون الكواكب، كما كان اليونان يقسمون المعبودات إلى آلهة، وأنصاف آلهة، يعتقدون أنّ للكواكب روحانيات تخدمها[3].

وأفل النجم أفولاً غاب، والأفول خاصًا بغياب النيرات السماوية، يقال: أفل النجم وأفلت الشمس، وهو المغيب الذي يكون بغروب الكواكب وراء الأفق، بسبب الدورة اليومية للكرة الأرضية، وقوله: «لاَ أُحِبُّ» الحبّ بمعنى الرضا والإرادة؛ أيّ لا أرضى بالآفل إلهًا أو لا أريد الآفل إلهًا.

1- مواقف إيمانية من قصة الخليل، مهاب عثمان، ص 20، الطبعة1، د بلد، 2003م.
2- سورة الأنعام(مكية)، الآية 78.
3- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 317- 320.

وجاء بـ «الآفِلِين» بصيغة جمع الذكور العقلاء المختص بالعقل بناءً على اعتقاد قومه؛ أنّ الكواكب عاقلة متصرفة في الأكوان، ولا يكون الموجود معبودًا إلاّ وهو عالم، وقوله: «فَلَمَّا رَءَا القَمَرَ بَازِغًا» عطف على جملة محذوفة دلّ عليها الكلام والتقدير: فطلع القمر فلمّا رآه بازغًا، والبازغ الشارع في ابتداء شروقه، والبزوغ ابتداء الشروق وقوله:«قَالَ هَذَا رَبِّي» أفاد بتعريف الجزأين على أنّه أكثر ضوءًا من الكواكب فإذا كان استحقاق الإلهية بسبب النور فالذي هو أشد نورا أولى بها من الأضعف، وقوله: «أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَومِ الضَّالين» قصد به تنبيه قومه للنظر في معرفة الربّ الحقّ وأنّه واحد وأنّ الكوكب والقمر كليهما لا يستحقان ذلك مع أنّه عرّض في كلامه بأنّ له ربًّا يهديه وهم لا ينكرون عليه ذلك لأنّهم ضالون وهيأهم قبل المصارحة للعلم بأنّهم ضالون.

وقوله:«فَلَمَّا رَءَا الشَّمسَ بَازِغَةً»؛ أيّ في الصباح بعد أنّ أفل القمر، لأنّ الظاهر أنّ هذا الاستدلال كلّه وقع في مجلس واحد، وقوله للشمس:«هَذَا رَبِّي» فكأنّه قال هذا الجرم الذي دعونه الشمس تبين أنّه هو ربي، وجملة«هَذَا أَكْبَر»؛ أيّ هو أكبر منها يعني أن الأكبر الأكثر إضاءة أولى باستحقاق الإلهية.

وقوله: «قَالَ يَا قَومِ إِنِّي بريءٌ مِّمَّا تُشرِكُون»: إقناع لهم بأن لا يحاولوا موافقته إياهم على ضلالهم، لأنّه لمّا انتفى استحقاق الإلهية عن أعظم الكواكب التي يعبدوها، فقد انتفى عمّا دونها بالأحرى، والبريء بمعنى تعصى وتنزه ومنه:«إِنِّي بريءٌ مِّمَّا تُشرِكُون» والأظهر أن (ما) في قوله: «مِّمَّا تُشرِكُون» مصدرية أيّ من إشراككم أيّ لا أتقلده.[1]

ويظهر أن إبراهيم عليه السلام قد بين لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية، ولا أن تعبد مع الله عز وجل.

المطلب الرابع: إبراهيم يكسر الأصنام ليلفت إلى دعوته الأنظار[2]

1- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 320- 323.
2- مواقف إيمانية من قصة الخليل، مهاب عثمان، ص 20.

قال تعالى: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ(57) فَجَعَلَهُم جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُم إِلَيه يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذكُرُهُم يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأتُوا بِه عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُم يَشْهَدُونَ(61) ﴾[1].

انتقل إبراهيم عليه السلام من تغيير المنكر بالقول، إلى تغييره باليد، معلنًا عزمه على ذلك بقوله: «وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» مؤكدًا عزمه بالقسم، سمّى تكسير الأصنام كيدً عن طريق الاستعارة، أو المشاكلة التقديرية، لاعتقاد المخاطبين أنّهم يزعمون أنّ الأصنام تدافع عن أنفسها، فلا يستطيع أنّ يمسها بسوء إلاّ على سبيل الكيد.

والكيد: التحيل على إلحاق الضرّ في سورة غير مكروهة عند المتضرر، وإنّما قيّد كيده بما بعد انصراف المخاطبين، إشارة إلى أنّه يلحق الضُرّ بالأصنام في أول وقت التمكن منه، وهذا عزمه عليه السلام ،لأنّ المبادرة في تغيير المنكر، مع كونه باليد، مقام عزم، وهو لا يتمكن من ذلك مع حضور عبدة الأصنام، فلو حاول كسرها بحضرتهم لكان عمله باطلاً.

وقوله: «فَجَعَلَهُم جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُم إِلَيه يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذكُرُهُم يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأتُوا بِه عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُم يَشْهَدُونَ(61)» والضميران البارزان في «جَعَلَهُم»،« لَهُمْ» عائدان للأصنام بتنزيلها منزلة العاقل، وضمير «لَعَلَّهُم» عائد إلى قوم إبراهيم.

والجُذاذ – بضم الجيم- في قراءة الجمهور: اسم جمع جذاذة؛ أيّ كسرهم وجعلهم قطعًا، وقرأ الكسائي «جِذَاذ» - بكسر الجيم- على أنّه مصدر، فهو من الأخبار بالمصدر للمبالغة.

قيل: كانت الأصنام سبعون صنمًا مصطفة ومعها صنم عظيم، وكان هو مقابل باب بيت الأصنام، وبعد أنّ كسرها جعل الفأس في رقبة الصنم الأكبر استهزاءً بهم.

ومعنى «لَعَلَّهُم إِلَيه يَرْجِعُونَ» رجاءً أن يرجع الأقوام إلى استشارة الصنم الأكبر، ليخبرهم بمن كسر بقية الأصنام، لأنّه يعلم أنّ جهلهم يطمعهم في استشارة الصنم الكبير.

وضمير «لَهُمْ» عائد إلى الأصنام من قوله: «أَصْنَامَكُمْ» وأجرى على الأصنام ضمير جمع العقلاء محاكاة لمعنى كلام إبراهيم عليه السلام ،لأنّ قومه يحسبون الأصنام عقلاء.

1- سورة الأنبياء(مكية)، الآية 57- 61.

وقول قومه: «مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَالِمِينَ» يدلّ على أنّه لم يخطر ببالهم أن يكون كبير الآلهة فعل ذلك، وهؤلاء القوم هم فريق لم يسمع توعد إبراهيم إياهم بأنّ يكيد أصنامهم، والذين «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُم» هم الذين توعد إبراهيم الأصنام بمسمع منهم.

وفي قولهم: «يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ» دلالة على المنتصبين للبحث في القضية ،لم يكونوا يعرفون إبراهيم، أو أنّ الشهداء أرادوا تحقيره ،بأنّه مجهول لا يعرف ،وإنّما يدعى أو يسمى إبراهيم[1].

ومعنى «عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ» على مشاهدة الناس، ومعنى «يَشْهَدُونَ» لعلّهم يشهدون عليه بأنّه الذي وعد الأصنام بالكيد.

وقال تعالى:﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبرَاهِيمُ(62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ(63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُم أَنْتُم الظَالِمُونَ(64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنْطِقُونَ(65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُم شَيئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ(66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(67)﴾[2] وقع هنا حذف جملة تقتضيها دلالة الاقتضاء. والتقدير: فأتوا به فقالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا.

وقوله تعالى: «بَلْ» إبطال لأن يكون هو الفاعل لذلك، فنفى أن يكون فعل ذلك.

وقوله تعالى: «فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا»: الخبر مستعمل في معنى التشكيك؛ أيّ لعلّه فعله كبيرهم إذْ لم يقصد إبراهيم نسبة التحطيم إلى الصنم الأكبر، لأنّه لم يدع إنّه شاهد ذلك ولكنّه جاء بكلام يفيد ظنّه بذلك، حيث لم يبق صحيحًا من الأصنام إلاّ الكبير، وفي تجويز أن يكون كبيرهم هذا الذي حطمهم إخطار دليل انتفاء تعدد الآلهة، لأنّه أوهمهم أنّ كبيرهم غضِب من مشاركة الأصنام له في المعبودية، وذلك تدرج إلى دليل الوحدانية ،فإبراهيم في إنكاره أن يكون هو الفاعل، أراد إلزامهم الحجة على انتفاء ألوهية الصنم العظيم، وانتفاء ألوهية الأصنام المحطمة، بطريق الأولى، على نية أنّ يقر على ذلك كلّه بالإبطال ،ويوقنهم بأنّه الذي حطم الأصنام، وأنّها لو كانت آلهة لدافعت عن أنفسها، ولو كان كبيرهم كبير الآلهة

1- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 98- 99.
2- سورة الأنبياء(مكية)، الآية 62- 67.

لدافع عن حاشيته وحرفائه، ولذلك قال: «فَسْـَٔلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» تهكمًا بهم، وتعريضًا بأنّ ما لا ينطق ولا يعرب عن نفسه غير أهل الألهية.

شمل ضمير «هُمْ» جميع الأصنام ما تحطم منها وما بقي قائمًا، والقوم إن علموا أنّ الأصنام لم تكن تتكلم من قبل، إلاّ أنّ إبراهيم أراد أن يقنعهم بأنّ حدثًا عظيمًا مثل هذا يجب أن ينطقوا، بتعيين من فعله بهم، وأمّا ما روي في الصحيحين عن أبي هريرة[1] ﷺ: أنّ النبي ﷺ قال: لم يكذب إبراهيم إلاّ ثلاث كذبات[2] ثنتين منه ،في ذات الله ﷻ قوله:« إِنِّي سَقِيمٌ» وقوله:«قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا » وبينما هو ذات يوم وسارة، إذْ أتى على جبّار من الجبابرة فقيل له: إنّ هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فقال: من هذه؟ قال: أختي فأتى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وأنّ هذا سألني فأخبرته أنّك أختي فلا تكذبيني...» وساق الحديث[3] فمعناه أنّه كذب في جوابه عن قول قومه: «أَأَنْتَ فَعَلتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا»، حيث قال: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» فقولهم: «أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا» سؤال عن كونه محطم الأصنام، فلمّا قال:«بَلْ» فقد نفى ذلك عن نفسه، وهو نفي مخالف للواقع ولاعتقاده فهو كذب.

أمّا الإخبار بقوله: «فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» فليس كذبًا وإنّ كان مخالفًا للواقع، ولاعتقاد المتكلم، لأنّ الكلام والأخبار، إنّما استقر بأواخرها، وما يعقبها، فإنّه لمَّا قصد تنبيههم على خطأ عبادتهم للأصنام، مهد لذلك كلامًا هو جارٍ على الغرض والتقدير، فكأنّه قال: لو كان هذا إلهًا لما رضي بالاعتداء على شركائه، فلمّا حصل الاعتداء عليهم بمحضر كبيرهم؛ يعين أن يكون هو الفاعل لذلك، ثمّ ارتقى في الاستدلال بأنّ سلب الإلهية عن جميعهم بقوله: «إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» فالمراد من الحديث :أنّها كذبات في بادئ الأمر، وأنّها عند التأمل يظهر المقصود منها.

1- هو الإمام الفقيه المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ أبو هريرة الدوسي اليمني، سيد الحفاظ الأثبات، هو عبد الرحمان بن صخر على القول الراجح حدّث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين، توفى 58هـ، انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، 2/ 578.

2 -**الكذبات**:هي من باب المعاريض، وذلك في حال خوف فطري وقع للخليل ﷺ فالضرورات تبيح المحضورات والكذب إنّ كان قبيحًا مخلاً لكنه قد يحسن في مواضع وهذا منها، انظر: صحيح قصص الأنبياء، ابن كثير، ص 119.

3- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ، برقم 2371، ص 925، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى:«واتخذ الله إبراهيم خليلاً»،النساء 165، وقوله: «إنّ إبراهيم كان أمة قانتًا لله»، النحل 120، وقوله: «إنّ إبراهيم لأواه حليم» التوبة 114، برقم 3357، ص 394.

وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلّهم؛ فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه.

المطلب الخامس:حادثة الإحراق ونجاة إبراهيم عليه السلام من النار[1]

قال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وانْصُرُوا ءالِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُم فَاعِلِينَ(68) قُلنَا يَا نَارُ كُونِي بَردًا وسَلامًا عَلَى إبْرَاهِيمُ(69) وأَرَادُوا بِه كَيدًا فَجَعَلنَاهُم الأخسَرِينَ(70)﴾[2]، لمّا غلبهم بالحجة القاهرة، لم يجدوا مخلصًا إلاّ بإهلاكه، واختار قوم إبراهيم أن يكون إهلاكه بالإحراق، لأنّ النار أهول ما يعاقب به وأفظعه.

والتحريق: مبالغة في الحرق؛ أيّ -حرقًا متلفًا- وأسند قول الأمر بإحراقه إلى جميعهم، لأنّهم قبلوا هذا القول، وسألوا ملكهم وهو نمرود إحراق إبراهيم فأمر بإحراقه، لأنّ العقاب إتلاف النفوس لا يملكه إلاّ ولاة أمر الأقوام، قيل: الذي أشار بالرأي بإحراق إبراهيم رجل من القوم كُردي اسمه (مينون)، واستحسن القوم ذلك والذي أمر بالإحراق نمرود، فالأمر في قولهم: «قَالُوا حَرِّقُوهُ» مستعمل في المشاورة.

ويظهر أنّ هذا القول كان مؤامرة سرية بينهم، دون حضرة إبراهيم، وأنّهم دبروه ليبتغوا به هروبه لقوله تعالى:«وَأَرَادُوا بِه كَيّدًا».

ومعنى: «إنْ كُنْتُم فَاعِلِينَ» إن كنتم فاعلين النصر، هذا تحريض وتلهيب لحميتهم.

وجملة:«قُلنَا يَا نَارُ كُونِي بَردًا وسَلامًا عَلَى إبْرَاهِيمُ» مفصولة عن التي قبلها، إما لأنها وقعت كالجواب عن قولهم: «حَرِّقُوهُ» فأشبهت جمل المحاورة، وإمّا لأنها استئناف عن سؤال ينشأ عن قصة التآمر عن الإحراق.

وبذلك يعين تقدير جملة أخرى، أيّ: فألقوه في النار، قلنا: يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم، وقد أظهر الله ذلك معجزة لإبراهيم إذْ وجه إلى تعلق الإرادة بسلب قوة الإحراق وأن تكون بردًا وسلامًا إن كان الكلام على الحقيقة، أو أزال عن مزاج إبراهيم التأثر بحرارة النار، إن كان الكلام على التشبيه البليغ؛ أيّ كوني كبرد في عدم تحريق الملقى فيك بحرك.

1- صحيح قصص الأنبياء، ابن كثير أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ص 113، غراس للنشر الكويت الطبعة 1، 1422هـ، 2002م.

2- سورة الأنبياء(مكية)، الآية 68-70.

وأمّا كونها سلامًا، فهو: حقيقة لا محالة، وذكر«سَلامًا» بعد ذكر البرد كالاحتراس لأنّ البرد مؤذٍ بدوامه ربما إذا اشتد، فعقب ذكره بذكر السلام لذلك.

وجملة: «وأَرَادُوا بِهِ كَيدًا فَجَعَلنَاهُم الأخسَرِينَ» تسمية عزمهم على إحراقه؛ كيدًا يقتضي أنهم دبروا ذلك خفية منه، ولعلّ قصدهم من ذلك أن لا يفرّ من البلد، فلا يتم الانتصار لآلهتهم. والأخسرين: مبالغة في الخاسر، فهو: اسم تفضيل مسلوب المفاضلة[1].

إذْ أنهم شرعوا يجمعون حطبًا من جميع الأماكن ليحرقوه، فكفاه الله شرها، وكانت بردًا وسلامًا على إبراهيم.

المطلب السادس:المناظرة والمحاجة[2]

يقول المولىﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَى إِلَى الّذِي حَاجَ إبرَاهِيمُ فِي رَبِّه أَنْ ءَاتَاه الله المُلْكَ إِذْ قَالَ إبرَاهِيمُ رَبِّي الّذِي يُحيِّي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحيِّ وَأُمِيتُ قَالَ إبرَاهِيمُ فَإِنَّ الله يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المشْرِقِ فَآتِ بِهَا مِنَ المغرِبِ فَبُهِتَ الّذِي كَفَرَ وَالله لاَ يَهْدِي القَومَ الظَالِمِينَ﴾[3].

المقصود من هذا تمثيل، حال المشركين في مجادلة النبي ﷺ في البعث، بحال الذي حاجّ إبراهيم في ربّه.

والاستفهام في «أَلَمْ تَرَى» مجازي متضمن معنى التعجب ،وهذا استدلال مسوق لإثبات الوحدانية لله تعالى، وإبطال إلهية غيره، لإنفراده بالإحياء والإماتة، ومعنى«حَاجَّ »: خاصم، والأغلب أنّه يفيد الخصام بباطل فمعنى: «الّذِي حَاجَ إبرَاهِيمُ فِي رَبِّه» أنّه خاصمه خصامًا باطلاً في شأن صفات الله ربِّ إبراهيم.

والذي حاج إبراهيم كافر لا محالة لقوله: «فَبُهِتَ الّذِي كَفَرَ»، وقد قيل: إنّه نمرود بن فالخ بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن كوش بن حام بن نوح، ويكون أخا (رَعو) ؛ جدّ إبراهيم، والذي يعتمد أنّه ملك جبّار، كان ملكًا في بابل، وأنّه الذي بنى مدينة بابل، وبنى الصرح، الذي فيها وقوله: «أَنْ ءَاتَاه الله المُلْكَ إِذْ قَالَ» تعليل حذفت منه لام التعليل، وهو تعليل لما يتضمنه حاجّ إبراهيم من الإقدام على هذا الغلط العظيم، الذي سهله عنده ازدهاؤه وإعجابه

1- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 107.
2- محاضرات التفسير الموضوعي، عباس عوض الله عباس، ص 20.
3- سورة البقرة(مدنية)، الآية 258.

بنفسه،وجوز صاحب الكشاف أن يكون تعليلاً غائبًا؛ أيّ :حاج لأجل أنّ الله آتاه الملك، قيل كان نمرود أول ملك في الأرض وضع التاج على رأسه.

و«إِذْ قَالَ» ظرف لحاجّ وقد دلّ هذا على أنّ إبراهيم هو الذي بدأ بالدعوة على الوحيد، واحتجّ بحجة واضحة يدركها كلّ عاقل، وهي أنّ الربّ الحق هو الذي يحي ويميت، فإنّ كلّ أحد يعلم بالضرورة أنّه لا يستطيع إحياء ميت، فلذلك ابتدأ إبراهيم الحجة بدلالة عجز الناس إحياء الأموات، وأراد بأنّ الله يحي أنّه يخلق الأجسام الحية من الإنسان والحيوان وهذا معلوم بالضرورة، وفي تقديم الاستدلال بخلق الحياة؛ إدماج لإثبات البعث ،لأنّ الذي حاجّ إبراهيم كان من عبدة الأصنام، وهم ينكرون البعث.

ففي الإحياء والإماتة دلالة على أنّهما من فعل غير البشر، فالله هو الذي يحي ويميت، وجملة: «قَالَ أَنَا أُحيِّ» بيان لحاجّ والقدير حاجّ إبراهيم ،قال: (نا أحيي وأميت) حين قال له إبراهيم: «رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ»، وقد جاء بمغالطة عن جهل أو غرور في الإحياء والإماتة، إذْ زعم أنّ يعمد إلى من حكم عليه بالموت فيعفو عنه ،وإلى برئ فيقتله ،ويجوز أن يكون مراده أنّ الإحياء والإماتة من فعله هو، لأنّ أمرهما خفي لا يقوم عليه برهان محسوس.

وقرأ الجمهور ألف الضمير (أنا) بقصر الألف، حيث يكون كفتحة غير مشبعة، وذلك استعمال خاص بألف (أنا) في العربية، وقرأه نافع وأبو جعفر مثلهم، إلاّ إذا وقع بعد الألف همزة قطع مضمومة أو مفتوحة كما هنا، وقوله:«قَالَ إِبرَاهِيمُ» مجاوبة فقطعت عن العطف، جريًّا على طريقة المحاورات وقد عدل إبراهيم عن الاعتراض بأنّ هذا ليس من الإحياء المحتج به ولا من الإماتة المحتج بها، فأعرض عنه لمّا علم من مكابرة خصمه، وانتقل إلى ما لا يستطيع الخصم انتحاله ولذلك بُهِت؛ أيّ: عجز ولم يجد معارضة.

والآية دليل على جواز المجادلة والمناظرة في إثبات العقائد، والقرآن مملوء بذلك، وأمّا ما نهى عنه من الجدل، فهو جدال المكابرة والتعصب ،وترويج الباطل والخطأ[1].

وقوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُونِّي فِي الله وقَد هَدَانِي وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَرُنَ﴾[2].

1- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 34.
2- سورة الأنعام(مكية)، الآية 80.

لمّا أعلن إبراهيم عليه السلام معتقده لقومه أخذوا في محاجته، فجملة: «وَحَاجَّهُ» عطف على جملة:«إِنِّي وَجَّهتُ وَجهِي للذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ والأَرضِ» وقد ذكرت حججهم في مواضع من القرآن، منها قوله في سورة الأنبياء: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَومِهِ مَا هَذِهِ التَمَاثِيلُ التِي أَنْتُم لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ.... وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1]، وقوله في سورة الشعراء: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدعُونَ أَوْ يَنْفَعُنَكُمْ أَوْ يَضُرّون﴾[2]، وفي سورة الصافات: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَومِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ..... فَجَعَلْنَاهُمْ الأَسْفَلِينَ﴾[3] وكلّها محاجة حقيقية، ويدخل في المحاجة ما ليس بحجة، ولكنّه ممّا يرونه حججًا، بأن خوفوه غضب آلهتهم، كما يدلّ عليه قوله: «وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِه» والتقدير: وحاجّه قومه فقالوا: كيت وكيت وجملة:«وقَد هَدَانِ » حال مؤكدة للإنكار؛ أيّ لا جدوى من لمحاجتكم أيّاي بعد أن هداني الله على الحق، فالظاهر أنّ إبراهيم عليه السلام نزّلهم في خطابه منزلة من يعلم أنّ الله هداه ،كناية على ظهور دلائل الهداية.

وقوله: «وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِه» معطوف على «أَتُحَاجُونِّي» فكون إخبارًا، أو على جملة: «وقَد هَدَانِ» فتكون تأكيدًا للإنكار، وتأكيد الإنكار بها أظهر منه قوله: «وقَد هَدَانِ» لأنّ عدم خوفه من آلهتهم قد ظهرت دلائله عليه، فقومه إمّا عالمون به أو منزلون منزلة العالم كما تقدّم قوله:«وقَد هَدَانِ»، وهو يؤذن بأنّهم حاجوه في التوحيد ،وخوفوه بطش آلهتهم، ومسهم إيّاه بسوء، إذْ لا مناسبة بين إنكار محاجتهم إيّاه، وبين نفي خوفه من آلهتهم، ولا بين هدى الله إيّاه، وبين نفي خوفه آلهتهم، فتعين أنّهم خوفوه مكر آلهتهم.

و(ما) من قوله: «مَا تُشْرِكُونَ بِهِ» موصولة ما صدقها آلهتهم التي جعلوها شركاء لله في الألوهية.

والضمير في قوله: «بِهِ» يجوز أن يكون عائدًا على اسم الجلالة، فكون الباء لتعدية فعل «تُشْرِكُونَ»، وأن يكون عائدًا إلى (ما) الموصولة فتكون الباء سببية؛ أيّ الأصنام التي بسببها أشركتم.

1- سورة الأنبياء (مكية)، الآية 52-56.
2- سورة الشعراء (مكية)، الآية 72- 73.
3- سورة الصافات(مكية)، الآية 85- 98.

«إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيئًا» استثناء مما قبله، وقد جعله ابن عطية[1] استثناءً منقطعًا، بمعنى: لكن وهو ظاهر كلام الطبري[2]، وهو الأظهر، فإنّه لمّا نفى أن يكون يخاف إضرار آلهتهم ،وكان ذلك قد يتوهم منه السامعون أنّه لا يخاف شيئًا ،استدرك عليه بما دلّ عليه الاستثناء المنقطع؛ أيّ: لكن أخاف مشيئة ربي شيئًا مما أخافه، فلذلك أخافه، وفي هذا الاستدراك زيادة نكاية لقومه، إذْ كان لا يخاف آلهتهم، في حين أنّه يخشى ربّه المستحق للخشية، إن كان قومه لا يعترفون بربٍّ غير آلهتهم.

وجعل الزمخشري[3] ومتابعوه ؛الاستثناء متصلاً مفرغًا عن المستثنى منه، محذوف دلّ عليه الكلام، فقدره الزمخشري من أوقات أيّ: لا أخاف ما تشركون به أبدًا.

وجملة: «وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيءٍ عِلْمًا» استئناف بياني، لأنّه قد يختلج في نفوسهم كيف يشاء ربّك شيئًا تخافه أنتَ ،وتزعُم أنّك قائم بمرضاته، ومؤيدًا لدينه، فما هذا إلاّ شكّ في أمرك فلذلك فصلت؛ أيّ إنّما آمن إرادة الله بي ضرًا وإن كنت عبده وناصر دينه لأنه أعلم بحكمة إلحاق الضُّرِ أو النفع بمن يشاء من عباده، وهذا مقام أدب مع الله تعالى: «فَلاَ يَأمَنُ مَكْرَ الله إلاَّ القَومُ الخَاسِرُونَ»

وجملة: «أفَلاَ تَتَذَكَّرُنَ» معطوفة على جملة: «أتُحَاجُونِّي فِي الله وقَد هَدَانِ» وقدّمت همزة الاستفهام على فعل العطف.

والاستفهام إنكار لعدم تذكرهم ،مع وضوح دلائل التذكر وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُم وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِالله مَا لَمْ يُنَزِلْ بِهِ عَلَيْكُم سُلْطَانًا فَأيُّ الفَرِيقَينِ أحَقُ بِالأَمْنِ إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ﴾[4] عطفت جملة:«كَيْفَ أَخَافُ» على جملة: «أخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِه» ليبين لهم أنّ عدم خوفه من آلهتهم أقل عجبًا من عدم خوفهم من الله تعالى، وهذا يؤذن بأنّ قومه كانوا يعرفون الله ،وأنّهم أشركوا

1- هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمان بن عطية الغرناطي القاضي المفسر، فقيه أندلسي ولد عام (480هـ)، وقد كان إمامًا جليلاً وكاتبًا بليغًا له تفسير جليل سمّاه المحرر الوجيز وهو من اجمع التفاسير لمعاني القرآن، وفى (541هـ). انظر: الأعلام للزركلي، 3 / 282.

2- هو محمد بن جرير ابن يزيد بن كثير، الإمام العلم المجتهد، عالم العصر أبو جعفر الطبري صاحب التصانيف البديعة من أهل آمل طبرستان، مولده سنة أربع وعشرون ومئتين للهجرة، أنظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، 267/14.

3- هو محمود بن عمر بن محمد الزمخشري أبو القاسم، جار الله، (467هـ- 538هـ) من أئمة التفسير والعربية كان حنفيًا في الفروع معتزليًا في الأصول من أشهر مؤلفاه الكشاف، أنظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، 151/20.

4- سورة الأنعام(مكية)، الآية 81.

معه في الإلهية غيره ،فلذلك احتج عليهم بأنّهم أشركوا بربّهم المعرف به، دون أن ينزل عليهم سلطانًا بذلك.

«كَيْفَ» استفهام إنكاري لأنّهم دعوه إلى أن يخاف باس الآلهة، فأنكر هو عليهم ذلك، وقلب عليهم الحجة ،فأنكر عليهم أنّهم لم يخافوا الله حين أشركوا به غيره؛ دون دليل نصبه لهم فجمعت (كيف) الإنكار على أمرين.

قالوا وفي قوله تعالى: «وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم» يجوز أن تكون عاطفة على جملة:

«أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُم» فتدخل كلتهما في حكم الإنكار، فخوفه من آلهتهم منكر وعدم خوفهم من الله منكر، ويجوز أن تكون الواو للحال، فيكون محل الإنكار هو دعوتهم إياه على الخوف من آلهتهم، في حال إعراضهم عن الخوف ممن هو أعظم سلطانًا، وأشدّ بطشًا، فتفيد (كيف) مع الإنكار معنى التعجيب على نحو قوله تعالى:«أَتَامُرُونَ النَّاسَ بالبِّرِ وتَنْسَونَ أَنْفُسَكُم».

و«مَا أَشْرَكْتُم» موصولة، والعائد محذوف أيّ: ما أشركتم به، حذف لدلالة قوله: «وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ» عليه والموصول في محل المفعول (به)، لـ ما(أشركتم).

وفي قوله: «أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم» حذفت (من) المتعلقة بـ: «تَخَافُونَ» لاطراد حذف الجار مع (أن)؛ أيّ من إشراككم ولم يقل: ولا تخافون الله، لأنّ القوم كانوا يعرفون الله ويخافونه، ولكنّهم لم يخافوا الإشراك به، ومعنى «لَمْ يُنَزِلْ بِهِ عَلَيْكُم»: لم يخبركم بإلهية الأصنام التي عبدتموها، ولم يأمركم بعبادتها خبر تعلمون أنّه من عنده ،فلذلك استعار لذلك خبر التنزيل تشبيهًا لعدم قدرته بالرفعة، ولبلوغه على من هم دون المخبر بنزول الشيء العالي إلى أسفل منه.

والسلطان: الحجة لأنّها تتسلط على نفس المخاصم؛ أيّ لم يأتكم خبر منه تجعلونه حجة على صحة عبادتكم الأصنام.

والفاء في قوله: «فَأيُّ الفَرِيقَينِ» تفريع على الإنكار والتعجب، فرع عليهما استفهامًا ملجئًا إلى الاعتراف بأنّهم أولى بالخوف من الله من إبراهيم من آلهتهم، والاستفهام بـ:

« أيّ» للتقرير بأنّ فريقه هو وحده أحق بالأمن وقوله: ﴿ الذِينَ ءامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[1]، هذه الجملة من حكاية كلام إبراهيم، على ما ذهب إليه جمهور المفسرين، فيكون جوابًا منه عن قوله: « فَأَيُّ الفَرِيقَينِ أَحَقُّ بِالأَمْنُ». تولى جواب استفهامه بنفسه ولم ينتظر جوابهم، لكون الجواب ممّا لا يسع المسؤول، إلاّ أن يجيب بمثله، وهو تبكيت لهم[2].

وقيل ليس ذلك من حكاية كلام إبراهيم، وقد انتهى قول إبراهيم عند قوله: « إِنّ كُنْتُم تَعْلَمُونَ»، بل هو كلام مستأنف من الله تعالى، لابتداء حكم، فتكون الجملة المستأنفة استئنافًا ابتدائيًا لقول إبراهيم.

وقيل: هو حكاية لكلام صدر من قوم إبراهيم، جواب عن سؤال إبراهيم « فَأَيُّ الفَرِيقَينِ أَحَقُّ بِالأَمْنُ»، ولا يصح ؛لأن الشأن في ذلك أن يقال: قال الذين آمنوا...إلخ، ولأنّه لو كان من قول قومه لما استمر بهم الضلال والمكابرة إلى حدّ أن ألقوا إبراهيم في النار.

وحقيقة«يَلْبِسُوا» يخلطوا، والظلم: الاعتداء على حق صاحب حق، والمراد به هنا: إشراك غير الله مع الله في الاعتقاد والإلهية وفي العبادة، وحمل الزمخشري الظلم على ما يشتمل المعاصي، لأنّ المعصية ظلم للنفس كما في قوله تعالى: «فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهُنَ أَنْفُسَكُمْ». تأويلاً للآية على أصول الاعتزال لأنّ العاصي غير آمن من الخلود في النار، فهو مساوٍ للكافر في ذلك عندهم، مع أنّه جعل قوله: «الذِينَ ءامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا» إلى آخره من كلام إبراهيم وهو إن كان محكيًا من كلام إبراهيم، لا يصح تفسير الظلم منه بالمعصية، إذ لم يكن إبراهيم حينئذٍ داعيًا للتوحيد، ولم يكن له بعدُ شريعة، وإنّ كان غير محي من كلامه فلا يناسب تفسيره فيه بالمعصية، لأنّ تعقيب كلام إبراهيم به مقصود منه تأييد قوله وتبيينه.

1- سورة الأنعام(مكية)، الآية 82.
2- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص331- 332.

قوله:﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1] **عطف على** جملة «وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ»، «وَتِلْكَ» إشارة إلى جميع ما تكلم به إبراهيم في محاجة قومه، وإضافة الحجة إلى اسم الجلالة للتنويه بشأنها وصحتها.

و«آتَيْنَا» في موضع الحال من اسم الإشارة أو من الخبر وحقيقة الإيتاء الإعطاء، فحقّه أن يتعدى إلى الذوات، ويكون بمناولة اليد إلى اليد، فإيتاء الحجة إلمامه إيّاها، وإلقاء ما يعبرعنها في نفسه ،وهو فضل من الله على إبراهيم، إذْ نصره على مناظريه[2].

المطلب السابع: ذكر هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام ودخوله الديار المصرية واستقراره بالأرض المقدسة وان رزقه الله ذرية صالحة [3]

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[4]، فضمير (قال) عائد إلى إبراهيم؛ أيّ أعلن أنّه مهاجر ديار قومه وذلك لأنّ الله أمر بمفارقة ديار أهل الكفر، وهذه أول هجرة لأجل الدين، ولذلك جعلها هجرة إلى ربّه.

وحرف (إلى) في قوله: «إِلَى رَبِّي» للانتهاء المجازي، إذْ جعل هجرته إلى الأرض التي أمره الله بأن يهاجر إليها كأنّها هجرة إلى ذات الله تعالى، فتكون (إلى) تخييلاً لاستعارة مكنية، أول جعل هجرة من المكان الذي لا يعبد أهله، لطلب مكان ليس فيه مشركون بالله، كأنّه هاجر إلى الله، فتكون(إلى) على هذا الوجه مستعارة لمعنى لام التعليل تبعية.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلعَالَمِينَ(71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ(72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ(73)﴾[5].

هذه نجاة ثانية بعد نجاته من ضرّ النار، وهي نجاته من الحلول بين قوم عدوّ له كافرين بربّه وربّهم، وهي نجاة من دار الشرك، وفساد الاعتقاد، وهجرة إبراهيم هي أول هجرة في الأرض لأجل الدين، واصطحب إبراهيم معه لوطًا ابن أخيه (هاران)، لأنّه آمن بما جاء به

1- سورة الأنعام(مكية)، الآية83.
2- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 332، 333، 335.
3- صحيح قصص الأنبياء، ابن كثير، ص 118.
4- سورة العنكبوت(مكية)، الآية 26.
5- سورة الأنبياء(مكية)، الآية 71- 73.

إبراهيم ،وكانت سارة امرأة إبراهيم معهما، وقد فهمت معيتها من أنّ المرء لا يهاجر إلاّ ومعه امرأته.

وهبة إبراهيم ازدياد إسحاق بن إبراهيم في حياة إبراهيم، ورؤيته إيّاه كهلاً صالحًا.

والنافلة: الزيادة غير الموعودة، فإنّ إبراهيم سأل ربّه فقال: «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَالِحِينَ» أراد الولد فولد له إسماعيل كما في صورة الصافات، ثمّ ولد له إسحاق من غير مسألة، وولد لإسحاق يعقوب فكان أيضًا نافلة[1].

والأئمة: جمع إمام ،وهو القدوة ،والذي يُعملُ كعمله. وجملة: «يَهْدونَ» في موضع الحال مقيدة لمعنى الإمامة؛ أيّ أنّهم أئمة هدى ورشاد.

وقوله: «بِأَمْرِنَا» أيّ: كانوا هادين بأمر الله، وهو الوحي زيادة على الجعل، وأمّا قوله تعالى: «وأَوْحَينَا لَهُمْ فِعْلَ الخَيرَاتِ» فذلك إقامة شرائع الدين بين الناس من العبادات والمعاملات.

وتخصيص:«وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ» بالذكر بعد شمول الخيرات وإيّاهما تنويه بشأنهما، لأنّ بالصلاة صلاح النفس، والزكاة صلاح المجتمع، لكفاية عوز المعوزين.

لمّا هجر قومه في الله، هاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربّه عز وجل، ودعوة الخلق إليه.

المطلب الثامن: تركه زوجه وابنه في مكة[2]

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَتِي بِوَادٍ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتَكَ المحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[3]

جملة «إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَتِي»مستأنفة لابتداء دعاء آخر، وافتتحت بالنداء لزيادة التضرع، وأضيف الربُّ هنا إلى ضمير الجمع خلافًا لسابقيه، لأنّ الدعاء الذي افتتح به فيه حظٌّ للداعي ولأبنائه، و(من) في قوله «مِنْ ذُرِّيَتِي» بمعنى بعض، يعني: إسماعيل عليه السلام - وهو بعض ذريته- والواد: الأرض بين الجبال وهو واد مكة.

1- التحرير والتنوير، ابن عاشور، ص 108- 109.
2- صحيح قصص الأنبياء، ابن كثير، ص 109- 111.
3- سورة إبراهيم(مكية)، الآية 37.

«غَيْرَ ذِي زَرْعٍ» صفة أيُّ: واد لا يصلح للنبت، لأنّه حجارة، والمحرّم: الممنع من تناول الأيدي؛ أيّ بما يفسده ،أو يضرّ أهله، بما جعل الله في نفوس الأمم من التوقير والتعظيم، وتوسيط النداء للاهتمام بمقدمة الدعاء، زيادة في الضراعة، وتهيأ بذلك أن يفرّع عليه الدعاء لهم، بان يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، لأنّ همة الصالحين في إقامة الدين.

والأفئدة: جمع فؤاد وهو القلب، والمراد به هنا النفس والعقل، والمعنى فاجعل أناسًا يقصدونهم بشفاف قلوبهم، وتهوي: مضارع هوى بفتح الواو: سقط، والمقصود من هذا الدعاء تأنيس مكانهم بتردّد الزائرين، وقضاء حوائجهم منهم، ورجاء شكرهم، داخل في الدعاء، لأنّه جعل تكملة له، تعرضًا للإجابة وزيادة في الدعاء لهم، بأنّ يكونوا من الشاكرين، والمقصود توفر أسباب الانقطاع إلى العبادة، وانتفاء ما يحول بينهم وبينها من فتنة الكدح للاكتساب[1].

امتثل الخليل لأمر ربّه بأن ترك زوجه وابنه بواد غير ذي زرع لماذا؟ «ربّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ»، الله أكبر، فهذا هو الذي من أجله أسكنهم هناك.

المطلب التاسع: قصة الذبيح عليه السلام[2]

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعي قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي المَنَامِ إِنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرْ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ الله مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[3]

الفاء في«فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعي» فصيحة مفصحة عن مقدر تقديره: فولد له، ويقع، وبلغ السعي قال يا بنيّ... إلخ، أيّ: بلغ أن السعي مع أبيه ،هذا ما يعني أنّه بلغ سن من يمشي مع إبراهيم في شؤونه.

وكان عمر إسماعيل يومئذٍ ثلاثة عشر سنة حينئذٍ، حدّث إبراهيم ابنه بما رآه في المنام، ورؤيا الأنبياء وحي، وكان أول ما بُدء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة، وأمر الله إبراهيم بذبح ولد أمر ابتلاء، والمقصود من هذا الابتلاء إظهار عزمه، وإثبات علو مرتبته في طاعة ربّه، فإنّ الولد عزيز على نفس الوالد، والولد الوحيد الذي هو أمل الوالد في مستقبله أشدّ عزة على نفسه لا محالة.

1- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 240- 242.
2- صحيح قصص الأنبياء، ابن كثير ، ص 131.
3- سورة الصافات(مكية)، الآية 102.

والفاء في قوله: «فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى» فاء تفريع أو هي فاء الفصيحة؛ أيّ إذا علم هذا فانظر ماذا ترى، والمعنى: تأمل الذي تقابل به هذا الأمر وذلك لأنّ الأمر لمّا علق بذات الغلام كان للغلام حظ في الامتثال، وكان عرض إبراهيم هذا على ابنه عرض اختبار، لمقدار طواعيته، بإجابة أمر الله في ذاته، لتحصل له بالرضى والامتثال مرتبة بذل نفسه في إرضاء الله، وهو لا يرجو من ابنه إلاّ القبول، لأنّه أعلم بصلاح ابنه ،وليس إبراهيم مأمورًا بذبح ابنه جبرًا، بل الأمر بالذبح تعلق بمأمورين: أحدهما بتلقي الوحي، والآخر بتبليغ الرسول إليه، فلو قدر عصيانه لكان حاله في ذلك حال ابن نوح عليه السلام الذي أبى أن يركب السفينة لمّا دعاه أبوه فاعتُبر كافرًا[1].

قرأ الجمهور «مَاذَا تَرَى» بفتح التاء والراء، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء وكسر الراء؛ أيّ ماذا تُرِيني من امتثال أو عدمه وجملة «سَتَجِدُنِي» هي الجواب، لأنّ الجملة التي قبلها تمهيد للجواب كما علمت، وهذا وعد قد وفّى به حين أمكن أباه من رقبته وهو الوعد الذي شكره الله عليه في الآية في قوله: «وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ» وفي قوله: « مِنَ الصَّابِرِينَ» من المبالغة في اتصافه بالصبر وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلجَبِينِ(103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ(014) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحْسِنِينَ(105) إِنَّ هَذَا لَهُو البَلاءُ المبِينُ(106) وَفَدَينَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيم(107)﴾[2].

«أَسْلَمَا» استسلمًا أيّ أسلما لأمر الله فاستسلام إبراهيم بالتهيؤ لذبح ابنه واستسلام الغلام بطاعة أبيه فيما بلغه عن ربّه.

«وَتَلَّهُ» صرعه على الأرض، واللام في«لِلجَبِينِ» بمعنى (على) والجبين: أحد جانبي الجبهة، وللجبهة جبينان، وليس الجبين هو الجبهة، ومناداة الله تعالى إبراهيم بطريق الوحي بإرسال الملك أسندت المناداة إلى الله تعالى لأنّه الآمر بها.

وصديق الرؤيا: تحقيقها في الخارج، بأن يعمل صورة العمل الذي رآه وجملة: «إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحْسِنِينَ» تعليل لجملة: «وَنَادَيْنَاهُ» لأنّ نداء الله إيّاه ترفيع لشأنه فكان ذلك جزاء إحسانه.

1- التحرير والتنوير، ابن عاشور، ص 149- 151.
2- سورة الصافات(مكية)، الآية 103- 107.

وجملة:«إِنَّ هَذَا لَهُو البَلاءُ المبِينُ» في محلّ العلة لجملة:«إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحْسِنِينَ» وجملة: «وَفَدَينَاهُ» يظهر أنّها من الكلام الذي خاطب الله به إبراهيم، والمعنى: وقد فدينا ابنك بذبح عظيم، ولو لا هذا التقدير كون الحكاية نداء الله إبراهيم غير مشتملة على المقصود من النداء وهو إبطال الأمر بذبح الغلام، وقد أشارت هذه الآيات إلى قصة الذبيح، ولم يسمه القرآن، لعلّه لئلا يثير خلافًا بين المسلمين وأهل الكتاب في تعيين الذبيح من ولدي إبراهيم[1].

المطلب العاشر: ذكر مولد إسحاق عليه السلام [2]

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالبُشْرَى قَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَءَا أَيدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيهِ نَكِرَهُمْ وأوجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَومِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةً فَضَحِكَتْ فَبَشْرنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتِي ءأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيخًا إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهِ عَلَيكُمْ أَهْلَ البَيتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾[3].

والغرض من هذه القصة هو الموعظة بمصير قوم لوط، إذْ عصوا رسول ربّهم فحلّ بهم العذاب، ولم تغن عنهم مجادلة إبراهيم، وقدمت قصة إبراهيم لذلك وللتنويه بمقامه عند ربّه على وجه الإدماج، والرسل: الملائكة.

قال تعالى: «جَاعِلِ المِلاَئِكَةِ رُسُلاً»، والبشرى: اسم للتبشير، والبشارة هذه البشرى هي التي في قوله: « فَبَشْرنَاهَا بِإِسْحَاقَ»، لأنّ بشارة زوجه بشارة له أيضًا.

وجملة: «قَالُوا سَلاَمًا» في موضع البيان لـ(بشرى)، لأنّ قولهم ذلك مبدأ البشرى والسلام: التحية، و(سلامًا) مفعول مطلق، وقع بدلاً من الفعل، والتقدير: سلمنا سلامًا و(سلام) المرفوع مصدر مرفوع على الخبر، لمبتدأ محذوف تقديره: أمري سلام، ردّ السلام بعبارة أحسن ومن عبارة الرسل زيادة في الإكرام، والفاء في قوله:«فَمَا لَبِثَ» للدلالة على التعجب إسراعًا في إكرام الضيف وتعجيل القرى سنة عربية: ظنهم إبراهيم عليه السلام ناسًا فبادر إلى قراهم، ولبث في المكان يقضي الانتقال عنه؛ أيّ فما أبطأ مجيئه مصاحب له، أيّ بل عجل.

1- التحرير والتنوير، ابن عاشور ، ص 152- 154.
2- صحيح قصص الأنبياء، ابن كثير، ص 137.
3- سورة هود(مكية)، الآية 69- 73.

والحنيذ: المشوي وهو المحنوذ، والشيء أسرع من الطبخ، فهو أعون على تعجيل إحضار الطعام للضيف، «لاَ تَصِلُ إِلَيهِ» أشدّ في عدم الأخذ من (لا تتناوله)، ويقال نكر الشيء إذا أنكره أيّ كرهه، وإنّما نكرهم لأنّه حسب أن إمساكهم عن الأكل التبرؤ من طعامه وإنّما يكون ذلك في عادة الناس في ذلك الزمان[1].

إذا كان النازل بالبيت يضمر شرًّا المضيفة، ولذلك عقب قوله (نكرهم) بـ: «أوجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً »؛ أيّ: أحس في نفسه خيفة منهم ،وأضمر ذلك لأنّه خشي أن يكونوا مضمرين شرًّا له، أيّ حسبهم قطاعًا، وكانوا ثلاثة وكان إبراهيم عليه السلام وحده، وجملة: «قَالُوا لاَ تَخَفْ» ولذلك أجابوا ما في نفسه بقولهم: «لاَ تَخَفْ»، فحكى ذلك منهم بالطريقة التي تحكي بها المحاورات، وقولهم: «إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَومِ لُوطٍ»، مكاشفة منهم إيّاه بأنّهم ملائكة، والحكمة من ذلك كرامة إبراهيم عليه السلام.

وعبّر عن الأقوام المراد عذابهم بطريق الإضافة«قَومِ لُوطٍ»، وجملة: «وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ»، لأنّ امرأة إبراهيم عليه السلام كانت حاضرة تقدم الطعام إليهم، فإنّ عادتهم كعادة العرب من بعدهم ؛أنّ ربّة المنزل كون خادمة القوم، وأمّا البشرى فقد حصلت قبل أن يخبروه، بأنّهم أرسلوا إلى قوم لوط، وإنّما ضحكت امرأة إبراهيم عليه السلام من تبشير الملائكة إبراهيم عليه السلام بغلام، وكان ضحكها ضحك عجب واستبعاد، وقد وقع في التوراة في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين: " وقالوا له: أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة، فقالوا: يكون لسارة امرأتك ابن؟ وكانت سارة سامعة في باب الخيمة فضحكت سارة في باطنها قائلة: أفبالحقيقة ألد، وأنا قد شخت؟ فقال الربّ: لماذا ضحك سارة؟ فأنكرت سارة قائلة لم أضحك، لأنّها خافت، قال لا بل ضحكت" وتفريع «فَبَشَّرنَاهَا بِإِسْحَاقَ» على جملة ضحكت ،باعتبار المعطوف وهو: «وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ»، لأنهّا ما ضحكت إلاّ بعد أن بشرتها الملائكة بابن، فلمّا تعجبت من ذلك بشروها بابن، زيادة في البشرى والتعجيب بأن يولد لها ابن ويعيش، وتعيش هي حتّى يولد لابنها ابن، ولمّا صرحت بتعجبها الذي كتمه بالضحك: «ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيخًا إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عَجِيبٌ»، فجملة: «قَالَتْ» جواب

1- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 115- 117.

للبشارة، و(يعقوب) مبتدأ «وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ» خبر والنداء في«يَا وَيْلَتِي» استعارة تبعية، بتنزيل الوسيلة منزلة من يعقل حتّى تنادى، والوسيلة: الحادثة الفضيعة والفضيلة، والبعل: الزوج.[1]

وزادت تقرير التعجب بجملة: «إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ»، وهي جملة مؤكدة لصيغة التعجب، وجملة: «هَذَا بَعْلِي»؛ أيّ كيف يكون له ولد وهو كما ترى، وجواب الملائكة إياها بجملة: «أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ» إنكار لتعجبها، أي أتعجبين من قدرة الله على خرق العادات وجملة: «رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهِ عَلَيكُمْ» تعليل لإنكار تعجبها، فصار المعنى: لا عجب من أمر الله لأنّ إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة، فلا عجب في وقوعها عندكم.

وتعريف (البيت) تعريف حضور، وهو البيت الحاضر بينهم الذي جرى فيه هذا التحاور، أيّ: بيت إبراهيم عليه السلام والمعنى أهل هذا البيت.

وجملة: «إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» تعليل لتوجه رحمته وبركاته إليهم، بأنّ الله يحمد من يطيعه وبأنّه مجيد، أيّ عظيم الشأن لأحد نعمه فلا يعظم عليه أن يعطيها ولدًا، وفي اختيار وصف الحميد من الأسماء الحسنى كناية عن رضى الله تعالى على إبراهيم عليه السلام وأهله[2].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيفِ إِبْرَاهِيمَ المُكْرَمِينَ(24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ قَومٌ مُنْكَرُونَ(25) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ(26) فَقَرَّبَهُ إِلَيهِم قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ(27) فَأَوجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ(28) فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ(29) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُو الحَكِيمُ العَلِيمُ(30) ﴾[3]، انتقال من الإنذار والموعظة والاستدلال إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية، المماثلة للمخاطبين المشركين في الكفر وتكذيب الرسل، والجملة المستأنفة استئنافًا ابتدائيًا، وغيّرت أسلوب الكلام من خطاب المنذرين مواجهة، إلى أسلوب التعريض تفننًا بذكر قصة إبراهيم، لتكون توطئة للمقصود من ذكر ما حلّ بقوم لوط عليه السلام حين كذبوا رسولهم.

ولمّا وُجه الخطاب للنبي ﷺ بقوله: «هَلْ أَتَاكَ» عُرف أن المقصود الأصلي تسليته على ما لقيه من تكذيب قومه.

1- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 17- 20.
2- المصدر نفسه، ص 21- 22.
3- سورة الذاريات(مكية)، الآية 24- 30.

والضيف: اسم يقال للواحد وللجمع ،لأنّ أصله مصدر ضاف، والمعني به الملائكة، الذي أظهرهم الله لإبراهيم عليه السلام ،فأخبروه بأنّهم مرسلون من الله لتنفيذ العذاب لقوم لوط، وسماهم الله ضيفًا ،نظرًا لصورة مجيئهم في هيئة الضيف، وفي سفر التكوين من التوراة: «أنّهم كانوا ثلاثة»، وعن ابن عباس[1]: أنّهم: «جبريل ومكائيل وإسرافيل»، وعن عطاء[2]: «جبريل ومكائيل ومعهم ملك آخر».

وظرف: «إِذْ دَخَلُوا عَلَيهِ» يتعلق بـ«حَديثُ» لما فيه من معنى الفعل، أيّ خبرهم حين دخلوا عليه.

وقوله: «قَومٌ مُنْكَرُونَ» من كلام إبراهيم، والظاهر أنّه قاله خفيًّا، إذْ ليس من الإكرام أن يجاهر الزائر بذلك فالتقدير: هم قوم منكرون، و«رَاغَ» مال في المشي إلى جانب والمعنى أنّ إبراهيم حاد عن المكان الذي نزل فيه الضيوف إلى أهله، أيّ إلى بيته الذي فيه أهله[3].

وفي التوراة أنّه: كان جالسًا أمام باب خيمة تحت شجرة وأنّه أنزل الضيوف تحتها.

ووصف العجل هنا بـ «سَمِينٍ»، ووصف في سورة هود بـ«حَنِيذٍ»، أيّ مشوي فهو عجل سمين شواه وقربه إليهم، وكان الشواء أسرع طبخ أهل البادية[4].

ومعنى «فَقَرَّبَهُ» وضعه قريبًا منهم.

وجملة: «قَالَ ألاَ تَأكُلُونَ» بدل اشتمال من جملة: «فَقَرَّبَهُ إلَيهِمْ» والعرض على الضيف عقب وضع الطعام بين يديه زيادة في الإكرام، بإظهار الحرص على ما ينفع الضيف، وإن كان وضع الطعام بين يديه كافيًا في تمكينه منه.

والفاء في: «فَأَوجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً» فصيحة لإفصاحها عن جملة مقدرة يقتضيها ربط المعنى؛ أيّ فلم يأكلوا فأوجس منهم خيفة والغلام الذي بشروه به هو إسحاق لأنه هو ابن سارة، وهو الذي وقعت له البشارة به في هذه القصة في التوراة، ووصف هنا بـ: «عَلِيمُ».

«الصرة»: الصياح ومنه اشتق الصرير، و« في » الظرفية المجازية وهي الملابسة.

1- عبد الله بن عباس حبر الأمة، وفقيه العصر وإمام التفسير أبو العباس عبد الله ابن عم رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب شيبة بن هاشم توفى سنة ثمان أو سبع وستين، انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، 3/ 332.

2- توفى 103هـ حدّث عن أبي أيوب وزيد وعائشة وأبي هريرة وأسامة بن زيد وعدّة، روى عنه زيد بن أسلم وصفوان بن سُليم وعمرو بن دينار، انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، 4/ 449.

3- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 358.

4- نفس المصدر، ص 356- 359.

والصك: اللطم، وصك الوجه عند العجب عادة النساء أيامهم، وقولها: «عَجُوزٌ عَقِيمٌ» خبر محذوف؛ أيّ أنا عجوز عقيم، وقول الملائكة: «كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ» الإشارة إلى الحادث وهو التبشير بغلام.

وجملة: « إِنَّهُ هُو الحَكِيمُ العَلِيمُ» تعليل لجملة «كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ» المقتضية أنّ الملائكة ما أخبروا إبراهيم إلاّ تبليغًا من الله وأن الله صادق وعده وأنّه لا موقع لتعجب امرأة

إبراهيم لأنّ الله حكيم يدبر تكوين ما يريده، وعليم لا يخفى عليه حالها من العجز والعقم[1].

المطلب الحادي عشر: موقفه مع ربّه

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

معطوف على قوله: «أَوْ كَالذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ»، فهو مثال ثالث[3] لقضية قوله تعالى:« اللهُ وَلِيُّ الذِينَ آمَنُوا»، ومثال ثانٍ لقضية «أَوْ كَالذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ»، فالتقدير: أو هو كإبراهيم إذْ قال ربّ أرني ...إلخ، فإنّ إبراهيم لفرط محبته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث، رام الانتقال من النظري البرهاني، إلى العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس.

وانتصب «كَيْفَ» هنا على الحال مجردة عن الاستفهام.

وقوله: «أَوَلَمْ تُؤمِنْ» الواو فيه واو الحال، والهمزة استفهام تقريري على هذه الحالة، وعامل الحال فعل مقدر دلّ عليه قوله: «أَرِنِي» ،والتقدير: أأريك في حال أنّك لم تؤمن، وهو تقرير مجازي، مراده لفت عقله إلى دفع هواجس الشك، فقوله: «بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» كلام صدر عن اختباره يقينه وإلفائه سالمًا من الشك.

1- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 360-361.
2- سورة البقرة(مدنية)، الآية، 260.
3- مواقف إيمانية من قصة الخليل إبراهيم، مهاب محمد عثمان، ط1، د ت، ص 5، 36، 42.

وقوله: «لِيَطْمَئِنَ قَلْبِي» معناه ليثبت ويتحقق علميًا وينتقل من معالجة الفكر، والنصر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة ،وانكشاف المعلوم ،انكشافًا لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال، ودفع الشبه عن العقل، وذلك أن حقيقة يطمئن يسكن.

والقلب مراد به العلم، وأراد بالاطمئنان: العلم المحسوس، وانشراح النفس به، وقد دلّه الله على طريقة يرى بها إحياء الموتى رأي العين، وقوله: «فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ» اعلم أن الطير يطلق الواحد، تلو الواحد مرادفًا لطائر، وذلك أن أصله المصدر والمصدر، يجري على الواحد وعلى الجمع[1].

وجيء بمن للتبعيض، للدلالة على أنّ الأربعة المختلفة الأنواع، والظاهر أنّ حكمة التعدد والاختلاف، زيادة في تحقق أنّ الإحياء لم يكن أهون في بعض الأنواع دون البعض، فلذلك عدّدت الأنواع،ولعلّ جعلها أربعة ليكون وضعها على الجهات الأربع: المشرق والمغرب والجنوب والشمال لئلا يظن لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأتّي الأحياء، ويجوز أنّ المراد بأربعة أجزاء من طير واحد، فكون اللام للعهد إشارة إلى طير حاضر؛ خذ أربعة من أجزائه ثمّ أدعهن، والسعي من أنواع المشي، لا من أنواع الطيران، فجعل ذلك آية على أنه أعيدت إليهن حياة مخالفة للحياة السابقة، وذكر كلّ جبل يدل على أنّه أمر بجعل كلّ جزء من أجزاء الطير على الجبل، لأنّ وضعها على الجبال تقوية لتفرق لك الأجزاء، فإنّها فرقت بالفصل من أجسادها وبوضعها في أمكنة متباعدة وعسرة تناول، والجبل قطعة عظيمة من الأرض، ذات حجارة وتراب ناتئة القطعة من الأرض المستوية، وفي الأرض جبال كثيرة متفارقة الارتفاع ومعنى: «فَصُرْهُنَّ» أدنهن أو أيلهن يقال صار يصوره ويصيره بمعنى هو لفظ عربي على الأصح وقيل معرب، وفائدة الأمر بإدنائها أن يتأمل أحوالها حتّى يعلم بعد إحيائها أنّه لم ينتقل جزء منها عن موضعه، وقوله: «ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَ جُزءًا» عطف على محذوف دلّ عليه قوله: «جُزءًا»، لأنّ تجزؤهن إنّما وقع بعد الذبح، فالتقدير فاذبحهن ثم اجعل ....إلخ.

وقرأ الجمهور«فَصُرْهُنَّ» بضم الصاد وسكون الراء، من صاره يصوره، وقرأ حمزة وأبو جعفر وخلف ورويس عن يعقوب «فَصِرْهُنَّ» بكسر الصاد من صار يصير لغة في هذا الفعل.

1- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 38-39.

وقرأ الجمهور جُزْءًا بسكون الزاي، وقرأ أبو بكر عن عاصم بضم الزاي وهما لغتان[1].

الآن نرى أن إبراهيم عليه السلام أحبّ أن يترقى من مرحلة علم اليقين بذلك إلى مرحلة عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدًا.

المطلب الثاني عشر: بناؤه بيت الله الحرام

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ(35) رَبِّ إِنَّهُنَ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(36) ﴾[2].

عطف جملة: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا»، فإنهم كما بدلوا نعمة الله كفرًا، أهملوا الشكر على أن بوأهم الله من النعم، بإجابة دعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام، وبدلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح ،اقتداءً بأسلافهم من أهل الضلالة، وبدلوا دعاء سلفهم الصالح لهم بالإنعام عليهم كفرًا بمفيض لك النعم، ويجوز أن تكون معطوفة على جملة: «اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» بأن انتقل من ذكر النعم العامة للناس، التي يدخل تحت منّتها أهل مكة، بحكم العموم إلى ذكر النعم التي خصّ الله بها أهل مكة، وغيّر الأسلوب في الامتنان بها على أسلوب الحكاية عن إبراهيم، لإدماج التنويه بإبراهيم عليه السلام ،والتعريض بذريته من المشركين.

«وَإِذْ» اسم زمان ماض منصوب على المفعولية، لفعل محذوف شائع الحذف في أمثاله، تقديره وأذكر إذْ قال إبراهيم «رَبِّ» منادى محذوف منه حرف النداء وأصله (ربّي).

والبلد: المكان المعين من الأرض، ويطلق على قرية، وحكاية دعائه بدون بيان البلد إبهام يردّ بعده البيان بقوله: «عِنْدَ بَيْتِكَ المحَرَّمِ» أو هو حوالة على ما في علم العرب من أنّه مكة، فهنا دعا للبلد بأن يكون آمنًا، «وَاجْنُبْنِي» أمر من الثلاثي المجرد، يقال: جنبه الشيء إذا جعله جانبًا عنه؛ أيّ باعده عني، وهي لغة أهل نجد، وأهل الحجاز يقولون: جنّبه بالتضعيف أو أجنبه بالهمز، وجاء القرآن هنا بلغة أهل نجد لأنها أخف، وأراد ببنيه أبناء صلبه، وهم يومئذٍ إسماعيل وإسحاق، أو أراد جميع نسله عميمًا في الخير فاستجيب له في البعض.

1- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 38- 40.
2- سورة إبراهيم(مكية)، الآية، 35-36.

والأصنام: جمع صنم، وهو صورة أو حجارة أو بناء يتخذ معبودًا ويدعى إلهًا، وأراد إبراهيم عليه السلام مثل: وُدٍّ وسواع ويغوث ويعوق ونسرٍ، أصنام قوم نوح، ومثل الأصنام التي عبدها قوم إبراهيم[1].

وإعادة النداء في قوله: «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ» لإنشاء التحسر على ذلك وجملة: «إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ» تعليل للدعوة بإبانة عبادتها ضلال راج بين كثير من الناس فافتتاح الجملة بحرف توكيد لما يفيد حرف (إنّ) في هذا المقام من معنى التعليل، وذلك أنّ إبراهيم عليه السلام خرج من بلده أور الكلدانيين إنكارًا على عبدة الأصنام فقال: «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّ سَيَهْدِينِ»، فلمّا مرّ بمصر وجدهم يعبدون الأصنام، ثم دخل فلسطين فوجدهم عبدة أصنام ثمّ جاء عَرَب تهامة فأسكن بها زوجه فوجدها خالية ووجد حولها جُهم قومًا على الفطرة والسذاجة فأسكن بها هاجر وابنه إسماعيل، وأراد أن يكون مأوى التوحيد وأقام ابنه هنالك ليكون داعية للتوحيد، فلا جرم سأل أن يكون ذلك بلدًا آمنًا حتّى يسلم ساكنوه وحتّى يأوي إليهم من آوى إليهم لقنوه التوحيد، ففرّع على ذلك قوله:

«فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي»؛ أيّ فمن تبعني من الناس فتجنب عبادة الأصنام فإنّه مني، فدخل في ذلك أبوه وقومه، ويدخل فيه ذريته لأنّ الشرط يصلح للماضي والمستقبل.

وقوله: «وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» تأدب في مقام الدعاء ونقع العصاة من الناس بقدر ما يستطيعه، والمعنى: ومن عصاني أفوض أمره إلى رحمتك وغفرانك، وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى، وهذا من غلبة الحلم على إبراهيم عليه السلام وخشية من استئصال عصاة ذريته، ولذلك متعهم الله قليلاً في الحياة الدنيا، وإذا كان قوله: «فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» تفويضًا لم يكن فيه دلالة على أنّ الله يغفر لمن يشرك به[2].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنِ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ اضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبئسَ المِصِيرُ﴾[3].

1- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 237- 239.
2 - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 237- 240.
3- سورة البقرة(مدنية)، الآية، 126.

عطف على: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً» لإفادة منقبة ثالثة لإبراهيم عليه السلام في استجابة دعوته بفضل مكة، والنعمة على ساكنيها إذا شكروا، والتنبيه ثالث لمشركي مكة يومئذٍ ،ليتذكروا دعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام ،المشعرة بحرصه على إيمانهم بالله واليوم الآخر، حتّى خصّ من ذريته بدعوته المؤمنين، فيعرض المشركون أنفسهم على الحال التي سألها أبوهم، فيتضح لهم أنّهم على غير تلك الحالة، وفي ذلك بعث لهم على الإنصاف بذلك لأنّ الناس رغبة في الإقتداء بأسلافهم، وحنينًا إلى أحوالهم، واسم الإشارة في قوله: «هَذَا بَلَدًا» مراد به الموضع القائم به إبراهيم حين دعائه ،وهو المكان الذي جعل به امرأته وابنه وعزم على بناء الكعبة فيه ،إن كان الدعاء قبل البناء، أو الذي بنى فيه الكعبة إن كان الدعاء بعد البناء، فإنّ الاستحضار بالذات مغني عن الإشارة الحسية باليد ،لأنّ تميزه عن المخاطب مغنٍ عن الإشارة إليه، فإطلاق اسم الإشارة حينئذٍ واضح، وقد عدل هنا عن بيان المشار إليه اكتفاء عنه بما هو الواقع عند الدعاء، فإنّ إبراهيم دعا دعوته، وهو في الموضع الذي بنى فيه الكعبة ،لأنّ الغرض ليس تفصيل حالة الدعاء، إنّما هو بيان استجابة دعائه، وفضيلة محل الدعوة، وجعل مكة بلدًا آمنًا ورزق أهله من الثمرات، وتلك عادة القرآن في الإعراض عمّا تعلق به المقصود ألا ترى أنّه لمّا جعل البلد مفعولاً ثانيًا استغنى عن بيان اسم الإشارة، والبلد المكان المتسع من الأرض المتحيز عامرًا أو غامرًا، وهو أيضًا مطلقًا ويطلق البلد على القرية المكونة من بيوت عدّة لسكن أهلها بها، وهو إطلاق حقيقي هو أشهر من إطلاق البلد على الأرض المتسعة، والظاهر أنّ دعوة إبراهيم المحكمة في هذه الآية كانت قبل أن تتقرى مكة؛ حيث لم يكن بها إلاّ بيت أو بيتان آخران لأنّ ابتدأ عمارته ببناء البيت من حجر، ولأنّ إلهام الله إيّاه لذلك فإرادته تعالى مصيرها مصير الحضارة، لتلك الجهة إرهاصًا لنبوة سيدنا محمد ﷺ؛ ويحمل أنّ ذلك المكان كان مأهولاً بالسكان وقت مجيء إبراهيم وامرأته وابنه.

والآمن اسم فاعل من أمن ضد خاف، وهو عند الإطلاق عدم الخوف من عدو، ومن قتال، وذلك ما ميّز الله مكة به من بين سائر بلاد العرب، ثمّ إن كان المشار إليه في وقت دعاء إبراهيم أرضًا فيها بيت أو بيتان، فالتقدير في الكلام اجعل هذا المكان بلدًا آمنًا أيّ قرية آمنة، فيكون دعاء بان يصير قرية وأن تكون آمنة، ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوة، فإنّ أمن البلاد والسبل، يستتبع جميع خصال سعادة الحياة، ويقتضي

العدل والعزّة والرخاء، إذْ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة فلا يختل الأمن إلاّ إذا اختلت الثلاثة الأول، وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة، وإنّما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على ساكنيه، لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد، من كونه منبع الإسلام، والثمرات: جمع ثمرة، وهي ما تحمل به الشجرة وتنتجه، وقوله:«مَنِ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ» بدل بعض من قوله:«أَهْلَهُ» يفيد تخصيصه لأنّ أهله عام إذْ هو اسم جمع مضاف وبدل البعض مخصص، وخصّ إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصًا على شيوع الإيمان لساكنيه، لأنّهم إذا علموا أنّ دعوة إبراهيم خصّت المؤمنين، تجنبوا أن يحيد بهم عن الإيمان، فجعل تيسير الرزق لهم على شرط إيمانهم باعثًا لهم على الإيمان، أو أراد التأدب مع الله تعالى، فسأله سؤالاً أقرب إلى الإجابة، ولعلّه استشعر من ردّ الله عليه عموم دعائه السابق، إذْ قال:«وَمِنْ ذُرِّيَّتِي»، فقال: «لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالِمِينَ» أن غير المؤمنين ليسوا أهلاً لإجراء رزق الله عليهم، وقد أعقب الله دعوته: «وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً»، ومقصد إبراهيم من دعوته هذه، أن تتوفر لأهل مكة أسباب الإقامة فيها، فلا تضطرهم الحاجة إلى سكن بلد آخر، لأنّه رجا أن يكونوا دعاة لما بنيت الكعبة لأجله من إقامة التوحيد، وخصال الحنيفية، وهي خصال الكمال، وهذا أول مظاهر تكوين المدينة الفاضلة التي دعا أفلاطون لإيجادها بعد بضعة عشر قرنًا، وجملة:«وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ» جاءت على سنن حكاية الأقوال في المحاورات والأجوبة المفصولة، وقوله:«وَمَنْ كَفَرَ» ولذلك آل المعنى هنا إلى أن الله تعالى أظهر فضله[1] على إبراهيم بأنّه يرزق ذريته مؤمنهم وكافرهم، أو أظهر سعة رحمته برزق سكان مكة كلّهم مؤمنهم وكافرهم، ومعنى أمتعه اجعل الرزق لهم متاعًا ،(وقليلاً) صفة لمصدر محذوف بعد قوله:«فَأُمَتِّعُهُ» وفي هذه الآية دليل لقول الباقلاني والماتردية والمعتزلة: بأنّ الكفار تمتعهم عليهم بنعم الدنيا، وقال الأشعري: لم ينعم على الكافر لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإنّما أعطاهم الله في الدنيا ملاذ على وجه الاستدراج، وقوله:« ثُمَّ اضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ» احتراس من أن يغتر الكافر بأنّ تخويله النعم في الدنيا، يؤذن برضى الله، فلذلك ذكر

1- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 714- 716.

العذاب هنا، وثمّ للتراخي كشأنها في عطف الجمل من غير الثقات، إلى كون مصيره إلى العذاب متأخرًا على تمتيعه بالمتاع القليل.

والاضطرار في الأصل الالتجاء وهو بوزن افتعل، مطاوع أضره إذا صيّره التعدي، ولكن الاستعمال جاء تعديته إلى مفعول، وهو استعمال فصيح غير جار على قياس، يقال: اضطرّه إلى كذا؛ أيّ ألجأه إليه، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة لقمان: «نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ» وقوله:«وَبِئْسَ المَصِيرُ» تذييل والواو للاعتراض أو للحال والخبر محذوف وهو المخصوص بالذم وتقديره هي[1] .

وقوله أيضًا: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾[2].

هذه منقبة ثالثة لإبراهيم عليه السلام وتذكير بشرف الكعبة ووسيلة ثالثة للتعريض بالمشركين بعد قوله: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً» ...إلخ، ورفع القواعد إبرازها من الأرض، والاعتلاء بها لتصير جدارًا لأنّ البناء، ويجوز جعل القواعد بمعنى جدران البيت كما سموها بالأركان ورفعها إطالتها، وقد جعل ارتفاع جدران البيت تسعة أذرع ،وعطف إسماعيل على إبراهيم تنويه به، كان معاونه ومناوله وللإشارة إلى التفاوت بين عمل إبراهيم وعمل إسماعيل، أوقع العطف على الفاعل بعد ذكر المفعول، والمعلقات وإسماعيل اسم الابن البكر لإبراهيم عليه السلام ،وهو ولده من جاريه هاجر القبطية، ولد في أرض الكنعانيين بين قادش وبارد سنة عشر وتسعمائة وألف قبل ميلاد المسيح ،ومعنى إسماعيل بالعبرانية الذي يسمع له الله، وكان إسماعيل مقيمًا بمكة حول الكعبة، وتوفى بمكة سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف قبل ميلاد المسيح تقريبًا، ودفن حول الكعبة.

وجملة«رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ السَّمِيعُ العَلِيمُ» مقول قول محذوف يقدر حالاً من يرفع إبراهيم، وهذا القول من كلام إبراهيم ،لأنّه الذي يناسبه الدعاء لذريته، لأنّ إسماعيل كان حينئذٍ صغيرًا، وجملة:«إِنَّكَ السَّمِيعُ العَلِيمُ» تعليل لطلب التقبل منهما، وتعريف جزأي هذه الجملة والإتيان بضمير الفصل، يفيد قصر بين للمبالغة في كمال الوصفين له تعالى، بتنزيل سمع غيره وعلم غيره منزلة العدم.

1- المصدر نفسه، ص 716- 717.
2- سورة البقرة(مدنية)، الآية، 127.

فمن خلال هذا كله نستخلص أنّ إبراهيم عليه السلام بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في وادٍ غير ذي زرع، ودعا لأهله بالبركة، وأن يرزقوا من الثمرات، مع قلة المياه، وعدم الأشجار، والزروع، وأن يجعله حرمًا محرمًا وآمنًا محتمًا ،فاستجاب المولى تبارك وتعالى له مسألته، ولبى دعوته وآتاه طلبه.

المبحث الثالث: منهج[1] ابن عاشور من خلال تفسير قصة إبراهيم عليه السلام

المطلب الأول: نماذج التفسير بالمأثور عند ابن عاشور

الفرع الأول: استشهاده بالقرآن:

وهو أجلّ الوسائل لمعرفة أجل الغايات، فما أجمل في كتاب الله في موضع، فإنّه قد بسط في موضع آخر، مثال ذلك قوله تعالى:«وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيءٍ عِلمًا» استئناف بياني لأنه قد يختلج في نفوسهم، كيف يشاء ربك شيئًا تخافه أنت ،وتزعم أنك قائم بمرضاته ،ومؤيد لدينه، فما هذا إلاّ شك في أمرك فلذلك فصلت؛ أيّ إنما آمنوا إرادة الله بي ضرًّا، وإن كنت عبده وناصر دينه لأنه أعلم بحكمة إلحاق الضرّ، أو النفع بمن يشاء من عباده، وهذا مقام أدب مع الله تعالى:«فَلاَ يَأمَنُ مَكْرَ الله إلاَّ القَومُ الخَاسِرُونَ».

وقوله:«وَكَيفَ أخَافُ مَا أشْرَكتُم وَلاَ تَخَافُونَ أنَّكُم أشْرَكْتُم بِالله مَا لَمْ يُنَزِلْ بِه عَلَيْكُم سُلْطَانًا»، فتفيد (كيف) مع الإنكار معنى التعجيب على نحو قوله تعالى: «أتَامرُونَ النَّاس بالبِرِّ وتَنْسَونَ أنْفُسَكُم».

- ومن خلال تتبعنا كذلك لمنهج الشيخ ابن عاشور- رحمه الله- ارتأينا أنّه يبين أو يشير إلى ذكر القراءات مثال ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء:«فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إلَيْهِ يَرْجِعُونَ».

والجُذاذ -بضم الجيم- في قراءة الجمهور اسم جمع جذاذة وهي فعالة من الجذّ وهو القطع أيّ: كسرهم وجعلهم قطعًا، وقرأ الكسائي«جِذَاذٌ»- بكسر الجيم- على أنّه مصدر فهو من الإخبار بالمصدر للمبالغة.

وفي قوله:«فَخُذْ أرْبَعَةً مِنَ الطَيْرِ فَصُرْهُنَّ إلَيكَ» وقرأ الجمهور«فَصُرْهُنّ» -بضمّ الصاد وسكون الراء- من صاره يصوره، وقرأ أبو جعفر وخلف ورويس عن يعقوب «فَصِرْهُنَّ» -بكسر الصاد- من صار يصير لغة في هذا الفعل[2].

1- **منهج:** نَهَجَ النهج: الطريق الواضح، ونهج الأمر وأنهج، وَضَحَ، ومنهج الطريق ومنهاجه، قال تعالى: « لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا» سورة المائدة 48، أنظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص 825.

2- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 98-99.

●وكثيرًا ما ينقل من التوراة وأسفارها الخمسة، والتعرض للكتب السماوية المحرفة، مثال ذلك قوله تعالى في سورة الذاريات:«هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيفِ إِبْرَاهِيمَ المكْرَمِينَ» جاء في سفر التكوين من التوراة أنّهم كانوا ثلاثة.

كما استفاد ابن عاشور كثيرًا من نصوص التوراة في بعض الآراء التفسيرية ومثال ذلك قوله تعالى:«إِنَّا أَرْسِلْنَا إِلَى قَومِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرنَاهَا بِإِسْحَاقَ» وقد وقع في التوراة في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين: " وقالوا له: ابن سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة، فقالوا: يكون لسارة امرأتك ابن؟ وكانت سارة سامعة في باب الخيمة فضحكت سارة في باطنها قائلة أ فبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ فقال الربّ: لماذا ضحكت سارة؟ فأنكرت سارة قائلة لم أضحك، فقال الربّ: لا بل ضحكت".

وقوله تعالى في سورة الذاريات:«فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ»، جاء في التوراة: أنّه كان جالسًا أمام باب خيمة تحت شجرة وأنّه أنزل الضيوف تحت الشجرة.

الفرع الثاني: استشهاده بالحديث:

ومن خلال تتبعنا لمنهج الشيخ ابن عاشور- رحمه الله- وجدنا أنّه يورد الأحاديث النبوية ويستشهد بها ويعتني بها مثاله في قول الله ﷻ في سورة الأنبياء:«قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» ، ما روي في الصحيح عن أبي هريرةﷺ: أنّ النبي ﷺ قال: لم يكذب إبراهيم إلاّ ثلاث كذبات ثنتين منه في ذات الله ﷻ قوله:«إِنِّي سَقِيمٌ» وقوله:«قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» وبينما هو ذات يوم وسارة إذْ أتى على جبّار من الجبابرة فقيل له: إنّ هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فقال: من هذه؟ قال أختي. وساق الحديث.

الفرع الثالث: استشهاده بأقوال الصحابة والتابعين:

ويتبين ذلك جليًّا من خلال قوله تعالى:«هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيفِ إِبْرَاهِيمَ المكْرَمِينَ»، وعن ابن عباس: أنّهم جبريل ومكائيل وإسرافيل، وعن عطاء: جبريل ومكائيل ومعهم ملك آخر.

المطلب الثاني: نماذج التفسير بالرأي عند ابن عاشور

الفرع الأول: اهتمامه باللغة

يعتبر ابن عاشور من المهتمين بمباحث اللغة العربية، فتفسيره للقصة القرآنية يزخر بالشواهد الشعرية وبالتحاليل البلاغية كما أنّه يتطرق إلى إعراب الألفاظ القرآنية، ويظهر ذلك من خلال قوله تعالى:«وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمُ» إلى قوله: «قَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ» و"سلامًا" مفعول مطلق وقع بدلاً من الفعل والتقدير: سلّمنا سلامًا، "سلام" المرفوع مصدر مرفوع على الخبر لمبتدأ محذوف تقديره: أمري سلام؛ أيّ لكم وقوله تعالى في سورة إبراهيم: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا»، إذْ اسم زمان ماضي منصوب على المفعولية لفعل محذوف شائع الحذف في أمثاله، تقديره: واذكر إبراهيم،«رَبِّ» منادى محذوف منه حرف النداء وأصله«رَبِّي».

استعانته بالشواهد الشعرية: قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ إِبْرَاهِيمُ فِي الكِتَابِ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾[1] وهذا كما في قول تأبط شرًّا:

إنّي لمهد من ثنائي فقاصد به لابن عمّ الصدق شمس بن مالك

استشهاده بالبلاغة:

قوله تعالى في سورة البقرة: «أَلَمْ تَرَى إِلَى الّذِي حَاجَ إبرَاهِيمُ فِي رَبِّه» المقصود من هذا تمثيل حال المشركين في مجادلهم النبي ﷺ في البعث بحال الذي حاج إبراهيم في ربّه.

والاستفهام في«أَلَمْ تَرَى» مجازي مضمن معنى التعجيب، وهذا استدلال مسوق لإثبات الوحدانية لله تعالى وإبطال إلهية غيره لإنفراده بالإحياء والإماتة.

شرحه للألفاظ:

يرى العلامة ابن عاشور أنّ عامة ألفاظ القرآن دل على معنيين فأكثر مثال ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم: «فَاجْعلْ أَفْئِدةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِم»، والأفئدة هنا عند ابن عاشور جمع فؤاد وهو القلب، والمراد به هنا النفس والعقل والمعنى: فاجعل أناسًا يقصدونهم بحبات قلوبهم.

1- سورة مريم(مكية)، الآية 42.

وقوله تعالى:«فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلجَبِينِ»، اسلما استسلاما أيّ اسلم لأمر الله فاستسلام إبراهيم بالتهيؤ للذبح، واستسلام الغلام بطاعة أبيه فيما بلغه عن ربّه.

الفرع الثاني: التفسير العقدي

إذا قال في سورة البقرة:«إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ المَوْتَى» **على قوله:** «واعْلَمْ أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ»، فإنّ إبراهيم لفرط محبته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث، رام الانتقال من العلم النظري البرهاني، إلى العلم الضروري فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس.

الفرع الثالث: استشهاده بالفقه

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا البَيْتَ مَثَابَةً للنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيتِي للطَائِفِينَ وَالعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[1] **والكعبة بيت بناه إبراهيم** عليه السلام **لعبادة الله وحده دون شريك، فيأوي إليه من يدين بالتوحيد، ويطوف به من يقصد تعظيم الله تعالى ولذلك أضافه الله تعالى باعتبار هذا المعنى كما قال:**«أَنْ طَهِّرَا بَيتِي للطَائِفِينَ» **وفي قوله:** «عِنْدَ بَيْتَكَ المحَرَّمُ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ».

وقد اختلف الفقهاء في الاستدلال بهذه الآية وإضرابها على حكم إقامة الحدود والعقوبات في الحرم[2].

1- سورة البقرة(مدنية)، الآية 125.
2- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ص 708- 709.

خاتمة

خاتمة

وبعد... فنحمد الله تعالى الذي بنعمته تتم الصالحات وها نحن في نهاية هذا المشوار الممتع مع العلم والجهبذ الإمام ابن عاشور، وما كان ليتم لولا توفيق الله وتسديده ومعونته فهو المستحق للحمد والشكر والثناء في الأولى والآخرة، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

وقبل انتهاء التسطير والتوقف عن التحبير لا بدّ لنا من ذكر زبدة هذا البحث لكي يقف القارئ الكريم على أبرز نتائجه فنقول وبالله التوفيق:

1- من خلال ترجمتنا للعلامة ابن عاشور تبينت لنا منزلته الرفيعة في ميدان العلم ورسوخ قدمه فيه والأثر الحميد الذي تركته مؤلفاته في بلاد المغرب العربي بصفة خاصة وفي العالم الإسلامي بصفة عامة لما تميزت به من التحرير والتدقيق اللذين تفتقر إليهما كثير من المؤلفات في عصرنا الحاضر.

2- أبصر ابن عاشور من خلال المقدمة السابعة في قصص القرآن أنّه ليس الغرض من سوق القصة القرآنية قاصرًا على حصول العبرة والموعظة مما تضمنته القصة من عواقب الخير أو الشرّ، بل الغرض من ذلك أسمى وأجل؛ حيث تتضمن عبرًا جمة وفوائد للأمة، فلذلك نرى القرآن يأخذ من كلّ قصة أشرف مواضيعها ويعرض عمّا عداه ليكون تعرضه للقصص منزهًا عن قصد التفكه بها.

3- بعد استطلاعنا على قصة إبراهيم عليه السلام من خلال تفسير ابن عاشور كان من أقوى العوامل على رسوخ وبيان منهجه في التفسير وتثبيت عبرتها في النفس.

4- لقد سلك الخليل عليه السلام في دعوته أحسن وأرقى منهاج وأقوم سبيل في تبليغ دعوة الحق إلى قومه، فكان أول من أعلن التوحيد إعلانا باقيًا ببنائه الكعبة.

5- استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه لمّا وعده بالإيمان، فلما تبين له أنّه عدو لله- إمّا عن طريق الوحي بأن نهاه الله عن الاستغفار له، وإمّا بعد أن مات على الشرك- تبرأ منه.

6- إصرار إبراهيم عليه السلام على إبطال عقيدة قومه عباد الكواكب الذين هم على دين الصابئة في اعتقادهم بأنّ الكواكب عاقلة متصرفة في الأكوان، فبين لهم أنّها لا تصلح للألوهية ولا أن تعبد مع الله عز وجل.

7- كان من أكبر مقاصد إبراهيم عليه السلام عند تكسيره للأصنام أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عبادها الحجة على بطلان ما هم عليه.

8- من أبرز العوامل التي دفعت قوم إبراهيم عليه السلام التآمر على إحراقه هو تكسيره للأصنام التي كانوا يعبدونها فجعل الله تعالى النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ومعجزة له بسلب قوة الإحراق.

9- احتج إبراهيم عليه السلام بحجة واضحة يدركها كلّ عاقل وهي أنّ الربّ الحق هو الذي يحيي ويميت وذلك لإثبات البعث وهم ينكرون ذلك.

10- بعد إقامة إبراهيم عليه السلام الحجة عليهم وإنكارهم له هجرهم في الله لأجل نصرة دينه وهي تعدّ بذلك أول هجرة في الأرض.

11- امتثل الخليل إبراهيم عليه السلام لأمر الله تعالى بأن ترك زوجه وابنه بوادٍ غير ذي زرع ليقيموا الصلاة.

12- امتثال آخر لإبراهيم عليه السلام لأمر الله تعالى حين أمره بذبح ولده بما رآه في المنام ورؤيا الأنبياء وحي وأمر الله إبراهيم بذبح ولده أمر ابتلاء.

13- من فضل الله تعالى ورحمته على سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن بشرته الملائكة على الكبر بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

14- أراد إبراهيم عليه السلام أن يترقى من مرحلة علم اليقين بذلك إلى مرحلة عين اليقين وأن يرى إحياء الموتى مشاهدًا أمامه.

15- بنى إبراهيم عليه السلام أشرف المساجد في أشرف البقاع في وادٍ غير ذي زرع ودعا الله بأن يجعل أفئدة الناس تهوي إليه فاستجاب المولى عز وجل سؤله وآتاه طلبه.

ويشهد الله تعالى والملائكة المقربون أنّه لم يكن هذا العمل مريحًا ولا سهلاً بل كان متعبًا وصعبًا، ولكنه ممتع فأخلصنا فيه واجتهدنا، وهذا ما تبين لنا والله أعلم ونسبة العلم إليه أسلم و صلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا.

قائمة المصادر والمراجع

✓**القرآن الكريم**

المصادر والمراجع

1- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج1 التونسية، تونس، 1984.

2- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان للذهبي، ج2، د ط مؤسسة الرسالة.

3- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ط1، دار ابن الهيثم، القاهرة 1425هـ، 2004م.

4- صحيح قصص الأنبياء، ابن كثير أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، غراس للنشر الكويت الطبعة 1، 1422هـ، 2002م

5- صحيح مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008م.

6- قصص القرآن، صلاح الدين محمود، ط1، دار الغد الجديد، المنصورة، 2009م.

7- قصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة، بيروت لبنان.

8- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان،ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2011م.

9- محاضرات في التفسير الموضوعي، عباس عوض الله عباس، د ط، دار الفكر دمشق، 2007م.

10- من أعلام الزيتونة، شيخ الجامع الأعظم، محمد الطاهر بن عاشور، بلقاسم الغالي ط1، دار ابن حزم بيروت، لبنان، 1417هـ، 1996م

11- مواقف إيمانية من قصة الخليل، مهاب عثمان، ط1، د. دار نشر، د. بلد، 2003م.

12- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد أرناؤوط تركي مصطفى، ط1، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 2000م.

المعاجم

1- مفردات في ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط5 دار القلم، دمشق، 2001.

الرسائل

1- أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر بن عاشور في كتابه (التحرير والتنوير)- أطروحة علمية مقدمة لنيل درجة الدكتوراه - للطالب مشرف بن أحمد جمعان الزهراني، جامعة أم القرى مكة المكرمة،كلية الدعوة وأصول الدين شعبة التفسير وعلوم القرآن، قسم الكتاب والسنة.

2- الإمام محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في توجيه القراءات من خلال تفسيره التحرير والتنوير – رسالة لنيل درجة الماجستير- للطالب محمد بن سعد بن عبد الله القرني، جامعة أم القرى مكة المكرمة،كلية الدعوة وأصول الدين، شعبة التفسير وعلوم القرآن، قسم الكتاب والسنة 1427هـ.

3- تميز المنهجي في عرض المقاصد القرآنية عند الطاهر بن عاشور في تفسيره – رسالة لنيل درجة الماجستير – للطالب نشوان عبد خالد قائد، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، 2010م.

4- مقدمات التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر ابن عاشور- رسالة لنيل شهادة الماجستير- للأستاذ غريسي محمد الصالح، جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، تخصص التفسير وعلوم القرآن، 2008م.

المجلات

1- العلامة المجدد والداعية المصلح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وأثره في الحفاظ على التراث العربي والإسلامي مجلة أفاق للثقافة والتراث، أحمد عيساوي.

فهرس الآيات

طرف الآية	الآية	السورة	الصفحة
قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِي حَاجَ﴾.	258	البقرة	25
قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ﴾.	260	البقرة	39
قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّ اجْعَلْ﴾.	127 -125	البقرة	43
قال تعالى:﴿ وَكَأَيِّن مِن نَبِيءٍ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾.	146	آل عمران	14
قال تعالى:﴿فَلَمَّا جَنَّ عَليه اَلليلُ رَءَا كَوكَبًا﴾.	78 -76	الأنعام	18
قال تعالى:﴿وَحَاجَّهُ قَومُهُ قَالَ أَتُحَاجُونِّي...﴾.	80	الأنعام	26
قال تعالى:﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُم...﴾.	81	الأنعام	28
قال تعالى:﴿ الذِينَ ءامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم...﴾.	82	الأنعام	29
قال تعالى:﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيم...﴾.	83	الأنعام	30
قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيه...﴾.	114	التوبة	17
قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمُ...﴾.	73 - 69	هود	35
قال تعالى:﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَتِي بِوَاد...﴾.	37	إبراهيم	32
قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا...﴾.	36 -35	إبراهيم	41
قال تعالى:﴿ فَارْتَدَا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا...﴾.	64	الكهف	11
قال تعالى:﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ...﴾.	41	مريم	16
قال تعالى:﴿قَالَ سَلاَمٌ عَلَيكَ سَأَسْتَغفِرُ لَكَ رَبِّي...﴾.	47	مريم	17
قال تعالى:﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ...﴾.	61-57	الأنبياء	20
قال تعالى:﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾	67 - 62	الأنبياء	21
قال تعالى:﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وانْصُرُوا ءالِهَتَكُم﴾	70 - 68	الأنبياء	23
قال تعالى:﴿نَجَيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْض...﴾.	73 - 71	الأنبياء	26
قال تعالى:﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَومِهِ مَا هَذِهِ التَمَاثِيلُ...﴾	56-52	الأنبياء	31
قال تعالى:﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدعُونَ أَوْ يَنْفَعُنَكُمْ...﴾	73-72	الشعراء	27
قال تعالى:﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي...﴾.	26	العنكبوت	31

قال تعالى:﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعي...﴾.	102	الصافات	27
قال تعالى:﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَومِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا...﴾	98-85	الصافات	33
قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلجَبِينِ....﴾	107-103	الصافات	34
قال تعالى:﴿ هَلْ أَتَاكَ حَديثُ ضَيفِ إِبْرَاهِيمَ...﴾.	30 -24	الذاريات	34

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
لم يكذب إبراهيم إلاّ ثلاث كذبات	أبو هريرة	22

فهرس الأعلام

اسم العلم	الصفحة
الراغب الأصفهاني	11
الطبري	27
الزمخشري	28
ابن عباس	38
عطاء	38
ابن عطية الأندلسي	27
أبوهريرة	22

الفهرس

الملخص

Résumé

شكر وتقدير لأهل العرفان

مقدمة.....أ

خطة البحث.....د

مدخل تمهيدي:التعريف بابن عاشور وكتابه 6

المطلب الأول: التعريف بابن عاشور.....6

الفرع الأول: اسمه ونسبه ومولده.....6

الفرع الثاني: حياته العلمية 6

الفرع الثالث: آثاره.....7

الفرع الرابع: أقوال العلماء فيه.....8

الفرع الخامس: وفاته 8

المطلب الثاني: التعريف بكتابه.....8

الفرع الأول: اسم الكتاب 8

الفرع الثاني: مناسبة التأليف 9

الفرع الثالث: مدّة التأليف.....9

الفرع الرابع: القيمة العلمية لكتابه 10

المبحث الأول: ماهية القصة القرآنية 11

المطلب الأول: القصص القرآني.....11

الفرع الأول: مفهوم القصص القرآني 11

الفرع الثاني: أهدافها وأنواعها 11

الفرع الثالث: خصائصها 12

المطلب الثاني: القصة القرآنية عند ابن عاشور.....13

الفرع الأول: مفهوم القصة عند ابن عاشور.....13

الفرع الثاني: فوائدها 13

الفرع الثالث: أغراضها 14
المبحث الثاني: قصة إبراهيم عليه السلام من خلال تفسير ابن عاشور 15
المطلب الأول: توحيد إبراهيم وتصديقه 15
المطلب الثاني:استغفاره لأبيه وتبرؤه منه 15
المطلب الثالث: محاجته لعبدة الكواكب 17
المطلب الرابع: إبراهيم يكسر الأصنام ليلفت إلى دعوته الأنظار 18
المطلب الخامس:حادثة الإحراق ونجاة إبراهيم عليه السلام من النار 22
المطلب السادس:المناظرة والمحاجة 23
المطلب الثامن: تركه زوجه وابنه في مكة 30
المطلب العاشر: ذكر مولد إسحاق عليه السلام 33
المطلب الحادي عشر: موقفه مع ربّه 37
المبحث الثالث: منهج ابن عاشور من خلال تفسير قصة إبراهيم عليه السلام 45
المطلب الأول: نماذج التفسير بالمأثور عند ابن عاشور 45
الفرع الأول: استشهاده بالقرآن 45
الفرع الثاني: استشهاده بالحديث 46
الفرع الثالث: استشهاده بأقوال الصحابة والتابعين 46
المطلب الأول: نماذج التفسير بالرأي عند ابن عاشور 47
الفرع الأول: اهتمامه باللغة 47
الفرع الثاني: التفسير العقدي 48
الفرع الثالث: استشهاده بالفقه 48
خاتمة 52
فهرس الآيات 56
فهرس الأحاديث 57
فهرس الأعلام 57
الفهرس 58